جاستون بوتول



تاريخ علم الاجتماع

جاستون بوتول

تاريخ علم الاجتماع

ترجمة وتعليق

غنيم عبدون

مراجعة

د. جلال حسن صادق

الكتاب: تاريخ علم الاجتماع

الكاتب: جاستون بوتول

ترجمة وتعليق: غنيم عبدون

مراجعة: د. جلال حسن صادق

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بوتول ، جاستون

تاريخ علم الاجتماع / جاستون بوتول, ترجمة وتعليق: غنيم عبدون، مراجعة: د. جلال حسن صادق – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ١٧٥ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

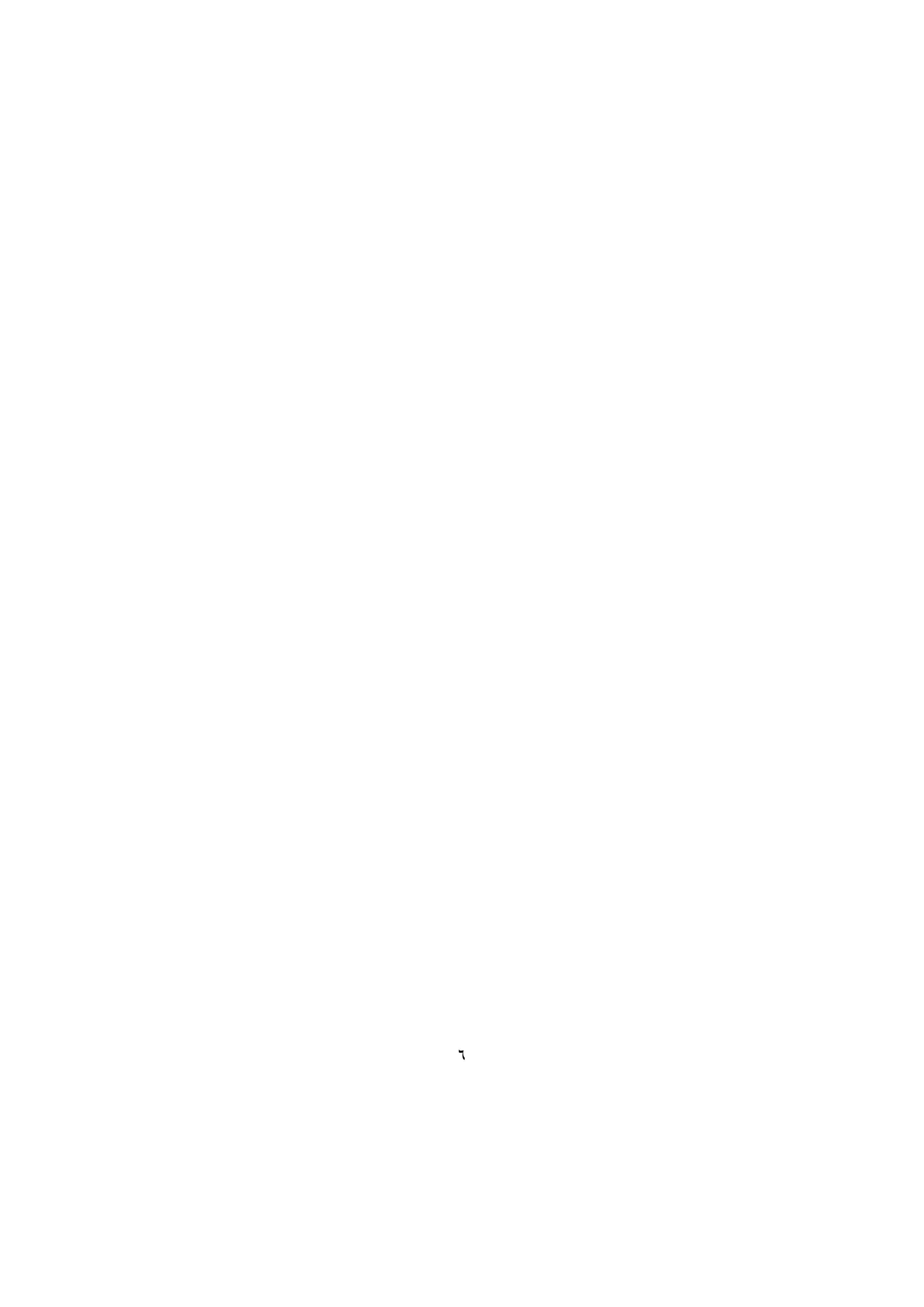
أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٦٤٨ / ٢٠٢١

تاريخ علم الاجتماع



الباب الأول

عناصر تكوين علم الاجتماع والمبشرون به



الفصل الأول

العصور القديمة والعصور الوسطى

إن التقدم الملحوظ الذي كملت صورته في التفكير في دراسة الظواهر الاجتماعية، يظهر بوضوح في مراحل أزمة من الأزمات عندما تتعدى الحوادث والاضطرابات والأطر، الاجتماعية التي تعودها الناس والحلول التقليدية التي درجوا عليها.

وفي أية دولة نظمها ثابتة وهيكلها الاجتماعي موحد ثابت، يظل تفكير الإنسان راكداً بدون أية إثارة. أما الحوادث غير المرتقبة فتفرض مجهوداً من التأمل والتفكير والتكيف من جانب المثقفين.

وعلم الاجتماع هو العلم الوحيد الذي تابع منذ مولده دراسة الظواهر التي في طريقها إلى التغيير المستمر، وكل مرحلة من مراحل هذا العلم مرتبطة تمام الارتباط بظاهرة من ظواهر عدم الاستقرار الاجتماعي.

ولكن لا يكفي أن تنشب أزمة كما تثير آلياً تطوراً ما أو تقدماً ما. وشرط التفكير الاجتماعي وجود نخبة مثقفة أو وسط ثقافي، يحاول أن يحلل وأن يتعمق العناصر المباشرة للتجربة، وأكثر من ذلك عليه أن يصنفها بشيء من الحرية دون أن يكون خاضعاً لاتجاه واحد مفروض عليه.

وقد وجدت كل هذه الشروط مجتمعة للمرة الأولى في بلاد الإغريق التي ازدهرت فيها كبريات المدارس الفلسفية مثل مدرسة السفسطائيين،

ومدرسة أرسطو، ومدرسة أفلاطون في أثناء المرحلة المضطربة التي كان مركزها حرب البولوبنيز.

وفي ظل كل مجتمع مبادئ اجتماعية كامنة لا تتبلور إلا نادراً. ومثل هذه المبادئ لا توجد إلا في تنظيمات المجتمعات التي هي أكثر بدائية. وكل شيء يمضي في مثل هذه المجتمعات يبدو وكأن القوانين والحقوق والتنظيم العائلي والاجتماعي ناتجة عن عدد معين من المبادئ والدوافع. ومن المهام الرئيسية لعلم دراسة الإنسان والتاريخ استخلاص هذه المبادئ وهذه الدوافع من جملة الحقائق التي تقوم على دراستها مثل هذه العلوم.

وقد نقل لنا المؤرخون من علماء الإغريق والرحل منهم بعض الصور عن الشرق القديم وتنظيماته الاجتماعية، وتعكس هذه الصور ما كان الطقوس الدينية من مكانة عظيمة عند تلك الشعوب. ولقد أشار هيرودوت Herodotu إلى أن أيديولوجية المصريين القدماء مثلاً كانت نوعاً من التأيد للتنظيم الاجتماعي الذي تصوروه بالنسبة للدين.

وكان التسلسل في مراتب الآلهة متمشياً مع مثيله في الناس، وإنشاء المملكة عنده عمل من أعمال الآلهة. وفرعون الذي كان بمثابة وسيط بين العالم السماوي والعالم الأرضي، اعتبر نفسه إلهاً كذلك. والحياة الآخرة من وجهة نظرهم ما هي إلا امتداد للحياة الدنيا، وهذا ما يفسر لنا الأهمية الكبرى لبناء المقابر وتحنيط الجثث، وكل ما يتصل بتنظيم ما بعد الحياة الدنيا ورفاهيته. وقد أتاح هذا المفهوم المادي للبقاء لعلماء الآثار أن يتفهموا حياة قدماء المصريين وأفكارهم أكثر من تفهمهم لطبيعة المجتمعات

التي اختفت بدورها بين غياهب الماضي.

وللمجتمعات الهندوكية التي هي أكثر قدماً .. فلسفة اجتماعية مرتبطة بالعقائد الدينية البراهمية، وبرغم أن علم الديانة الهندوكية مليء بكثير من الأساطير والخرافات فإن به حقائق اجتماعية آمن بها الناس في ذلك العصر على أنها عقائد دينية.

ونظام الطوائف هو الدعامة الأساسية للمجتمعات التي تعتنق الفلسفة البراهمية، فالتبريرات والتفسيرات التي يضفيها الفلاسفة البراهميون على وجود الطبقيات والنتائج التي يستخلصونها تدل على أنه كان نظاماً متماسكاً في المحيط الديني، وكذلك في محيط التنظيم المادي والمهني.

وفي أمريكا، قبيل عصر كولومب، كان هناك بعض المفاهيم الاجتماعية قبل ظهور المبادئ والمعتقدات التي هيمنت على تنظيم المجتمعات الأمريكية، وكانت هذه المجتمعات ذات خصائص تختلف الواحدة عن الأخرى وخاصة المجتمعات ذات الطابع الإلهي، ويقصد به المجتمع الإقطاعي والعسكري.

وربما ينحصر في هذه النقطة بالذات، الطابع المميز للمجتمعات الشرقية، فلم يقم التنظيم الاجتماعي فيها على مبادئ دينية فقط، بل إنه يعتبر كذلك امتداداً مباشراً لعالم علوي.

وكان الإمبراطور في الصين القديمة، وخاصة في عصر الإقطاع، يعتبر "ابن السماء"، كما أن الميكادو يعتبر في اليابان "إلهاً" ومع ذلك فقد اهتم المفكرون الكلاسيكيون في الصين ببعض المشكلات الاجتماعية، ولكن

هذه المشكلة ظلت مندرجة تحت مذهب نفعي ضيق وتحت مبادئ أخلاقية قاسية كل القسوة، تدعو إلى عدم مبالاتها بآلام الأفراد وخاصة النساء منهم.

ولم يَلُح فجر علم الاجتماع إلا حينها تجردت التأملات الاجتماعية؛ ولو جزئياً، عند بزوغ أول خيط من الروابط الدينية. وكان الذي يربط المدن الإغريقية ويوحد ما بينها .. تلك المعتقدات الدينية برغم اختلاف المنظمات السياسية فيما بينها. وقد أتاح وجود المجتمعات المختلفة في المدن الإغريقية ظهور الرواد الأوائل لعلم الاجتماع.

السفسطائيون Les Sophistes

والفلاسفة الأوائل من الإغريق الذين عالجوا بعض المشكلات الاجتماعية هم السفسطائيون. وقد تزودنا بأفكار هؤلاء من خلال كتابات أعدائهم، فهؤلاء لا يذكرون مؤلف أفلاطون "بروتاجوارس" أو مؤلف ارستوفان إلا للنقد والسخرية. ومهما تكن الأفكار التي احتوتها هذه المؤلفات فإنها تعتبر فتحاً جديداً في الميدان الاجتماعي من ناحية ظهور الطريقة العلمية في معالجة المشكلات الاجتماعية أو غير الاجتماعية. وكانت طريقتهم قائمة على الملاحظة والمقارنة والنقد.

ولا يثق السفسطائيون في التفسيرات المألوفة ولا في الأساطير والخرافات. وهم ينددون بالأفكار والعادات القديمة التي كانت تسود المنظمات الأثينية، برغم التطور الهائل في التجارة والثقافة لهذه البلاد.

من أجل هذا بدءوا في البحث عن قانون طبيعي قائم على احترام

الشخصية الإنسانية. وقد عملوا ما في وسعهم على تحرير الفرد الذي ينتمي إلى المجتمعات القديمة. وقد انصبت كل بحوثهم على مسائل أخلاقية، فحاربوا الرق والقومية العنيفة التي اشتهرت بها المدن الإغريقية. وهذه أول مرة في تاريخ الفكر الإنساني، يرى المرء فيها مناقشات حرة حول مسائل اجتماعية أدت إلى خلق العبقرية الإغريقية في عالم ظلت فيه الفلسفة سقيمة على الفهم ومقصورة على المشتغلين بها.

وقد نبهت مناقشات السفسطائيين فيما بينهم أذهان المفكرين ووجهتهم نحو التفكير والتأمل في الظواهر الاجتماعية.

أفلاطون Platon (٤٢٩ - ٣٤٧ ق.م)[١]

ولد أفلاطون في أثينا وهو ابن "أرسطون" ولما بلغ العشرين من عمره تتلمذ على سقراط ولازمه نحو ثمانية أعوام، فسمع مناقشاته ودّون الكثير من آرائه. وبعد أن نفذ الحكم على سقراط، هاجر إلى بلدة "ميجارا" القريبة من أثينا، ثم زار آسيا الصغرى ومصر وإيطاليا وصقلية. وقد اهتم بدراسة المذاهب الفلسفية الشائعة في زمنه، وشملت دراسته مذاهب الفلسفة الشرقية الهندية والفارسية.

استهل أفلاطون كتابه والجمهورية، بفصل عن ماهية العدل، واعتقد أن أحسن تعريف لحقيقة العدل يكون بتحليل المجتمع وبتحليل النفس البشرية، ولكنه بدلاً من أن يبدأ بالفرد وينتقل إلى المجتمع، نجده يقوم بتحليل المجتمع البشري أولاً، وحجته في ذلك أننا نرى الفرد في المجتمع

---

[١] من تعليقات المترجم

على صورة أكبر وأوضح؛ ففي المجتمع بطبقاته وتجارته وصناعته وأنظمته العسكرية والسياسية تظهر العناصر الخفية للطبيعة الإنسانية، وتتخذ شكلاً أكثر وضوحاً عنها في الفرد نفسه[1].

إن خلاصة أفكار أفلاطون نجدها في مؤلفه الرئيسي "الجمهورية" الذي يعرض منهجاً حقيقياً للفلسفة الاجتماعية.

ومن أجل هذا فأفلاطون لا يرسم تخطيط اجتماعياً للمدينة على ما هى عليه، بل على ما يجب أن تكون عليه. وهناك مشكلة أخرى شغلت بال أفلاطون، ألا وهي كيف يمكن تجنب الاضطرابات والقلاقل التي لا تحتمل والتي تسبب تخريباً ودماراً مما يؤدي إلى شقاء بلده وبؤسه؟ وهو يقول في هذا المقام:

"يجب علينا أن ننظم بلادنا بطريقة مدروسة وثابتة"

وبهذا يمكن القول أنه منذ عصر أفلاطون كانت تغلب على طابع الفلسفة الاجتماعية دراسة مظاهر الاضطرابات في المجتمع ومحاولة البحث عن علاج لها.

ولكي نتجنب هذه الاضطرابات وتلك القلاقل، يوصي هذا الفيلسوف بالرجوع إلى المنظمات القديمة لبلاد اليونان، ومثله الأعلى في ذلك التكوين الذي لا يتغير لمدينة "إسبرطة" من حيث صرامته وأرستقراطيته وعسكريته. وهو يضيف – كما يكتمل مثله الأعلى – إلى ذلك التقليل من التبادل بين المدن الإغريقية وعدم الثقة في المثقفين وفي

([1]) للمترجم

الشعراء ذوي الحساسية الشاعرية وأصحاب التجديد المستمر، ويدعو كذلك إلى إقامة نظام من الطوائف.

وأخيراً فلتلافي أي تصدع في التوازن الاقتصادي والسياسي، يلزم تحديد عدد السكان في المدينة التي تتخذ نموذجاً لهذا النظام، ولكي نحافظ على عدم زيادة السكان بتلك المدينة النموذجية يشير إلى أن على القضاة أن ينظموا عدد الزيجات بحيث لا تتخلف عن فوضى الزواج زيادة في عدد المواليد، ويؤاخذ المواطنون الذين ينجبون أطفالاً بعد تعديهم السن المقررة والذين لا يتبعون الشروط التي نظمها القانون.

يقول اسبيناس Espinas: "يعد أفلاطون أكثر فلاسفة السياسة مثالية وواقعية في الوقت نفسه، ويعتمد مفهومه الاجتماعي على مفهومه السيكولوجي، وهذا المفهوم الأخير يبنى على تحليل الاتجاهات الإيجابية للروح الإنسانية"

ويقسم أفلاطون الروح ثلاثة أقسام: فهي تتكون من الرغبة (الرغبة في الأشياء المادية) ومن القلب ومن العقل، والمهارة تكون في التحكم بين موازنة هذه الاتجاهات الثلاثة، وتوازن بين الفصائل الثلاث التي تتصل بهذه الاتجاهات: الاعتدال والشجاعة والحكمة. ويلزم أن يتمثل هذا التوازن للروح الإنسانية في المجتمع الذي يجب أن يتشكل من ثلاث طبقات على حسب صورة الروح: طبقة الصناع، وطبقة المحاربين، وطبقة القضاة والفلاسفة.

وعلى عكس المجتمع الإقطاعي .. حيث الطبقتان الحاكمتان، أي طبقة

النبلاء وطبقة رجال الدين هما في الوقت نفسه كبار ملاك الأرض، يريد أفلاطون أن يكون حق الملكية لطبقة الصناع فقط، أما الطبقتان الأخريان فعليهما أن يحققا نوعاً من أنواع "الجماعية" Communitarisme التي تهدف إلى سيادة الأخوة وعدم حب الذات. ويجب أن يطبق هذا النظام بالنسبة لهاتين الطبقتين على الأسرة، فيكون اندماج هذه الأسر معاً لوقت معين وتحت سلطة القضاة لمراقبة تنفيذ هذا النظام بكل دقة وعناية، وسيتربى الأطفال معاً على أنهم إخوة متحابون على شريطة أن يتناسوا آباءهم الحقيقيين.

وقد رسم أفلاطون كذلك خطوط نظرية خاصة بالاضطرابات الاجتماعية، وفي رأيه أن هذه الاضطرابات الاجتماعية تنشأ من تعاقب الدورات السياسية المتتالية التي تنتج بدورها عن اختلاف المفاهيم السيكولوجية بين الأجيال المتعاقبة. وهو يرى أن التطور الاجتماعي قائم على التسلط المتعاقب لعدد من النماذج السيكولوجية الدائمة وهي: المنصفون، والطامعون، والمستبدون.

ويقيم أفلاطون ارتباطاً منطقياً بين سلوك الدولة وسلوك الأفراد فهو يقول:

"يختلف سلوك الحكومات، كما تختلف قلوب الناس"

أرسطا طاليس Aristote (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م)

ولد أرسطاطاليس بمستعمرة يونانية يقال لها "ستاجيرا" على ساحل مقدونيا بالقرب من ترافيا، وكان السلطان اليوناني في ذلك الوقت موضع

التنازع بين مدن ثلاث هي: إسبرطة وأثينا وطيبة، وكانت كل مدينة من هذه المدن تحاول أن تسود البر والبحر، وأن تكون صاحبة الكلمة في بلاد اليونان. وقد نشأ هذا الطفل نشأة خاصة وأثر فيه ما كان يشهده من ضعف اليونان وفساد أمرهم، وانتقل من مقدونيا إلى أثينا حين بلغ السابعة عشرة ليتم دراسته، وكانت أثينا هي الجامعة التي تحج إليها وفود من طلاب العلم من أوربا وآسيا وأفريقية.

ونستطيع أن نعد العصر الأخير من حياة أرسطاطاليس عصر الإنتاج العلمي؛ فلم يكد يستقر به المقام في أثينا حتى بدأ دروسه العلمية والفلسفية والأدبية، وتتلخص فلسفة أرسطاطاليس من الناحية العلمية في أربعة آراء:

الأول: البحث عن الإنسان من حيث إنه جماعة سياسية، وهو الفلسفة السياسية.

الثاني: البحث عن الإنسان من حيث إنه فرد من جماعة له حقوق وعليه واجبات، وهذا هو علم الأخلاق.

الثالث: البحث عن الإنسان من حيث إنه مفكر، وهذا هو علم المنطق.

الرابع: البحث عن الإنسان من حيث إنه مفكر يريد أن يعبر عما يجول في خاطره من صور وحكم، وهذا هو علم البيان.

وبرغم أن أرسطاطاليس تلميذ لأفلاطون فإنه يختلف عن أفلاطون في أنه لم يعمد إلى تلك المبادئ الخيالية التي عمد إليها أستاذه، بل سعى إلى

الربط بين القديم والحديث عن طريق الحقيقة، ووضع بعض الأنظمة والمبادئ العلمية التي هي أقوى وأمتن من أنظمة أستاذه ومبادئه. ولقد سماه أفلاطون بالفيلسوف الواقعي، كما سماه "شيشرون" برجل النصاحة ذي المعلومات الجامعة والفكر الواضح[1].

إن تفكير أرسطو يتميز بجرأة أقل وبواقعية أكثر من تفكير أفلاطون، وبعد إنتاجه الرئيسي في الميدان الذي يهمنا هو كتابه "السياسة"، ففيه يقوم بدراسة مقارنة الدساتير السياسية والمنظمات بوجه عام لجميع المدن الإغريقية وبعض الدول المشابهة لها مثل قرطاجنة، وقد حاول دراسة الظواهر الاجتماعية بالطريقة التي أراد أن يدرس بها الظواهر الطبيعية والظواهر النفسية وما بعد الطبيعة.

ونحن نجد في اجتماعية أرسطو عدداً كبيراً من التعبيرات ومن الأفكار التي أصبحت تعبيرات وأفكاراً كلاسيكية: مثل هذا التعبير المشهور

"L ' homme est un animal politique" "والإنسان حيوان سياسى" أي أنه مرتبط تمام الارتباط بالحياة في مجتمع، فلا يمكن فهم الإنسان بمفرده معزولاً عن الإطار الاجتماعي الذي يعيش فيه، وهذه الحقيقة صحيحة سواء بالنسبة لخلود الجنس أو الدفاع عن الحياة والمحافظة عليها. أو تطور الآراء والقوى الأخلاقية التي تعتبر نهاية كمال الإنسان. وهو يبرز تأثير المناخ على السيكولوجية الاجتماعية.

ويقول: إن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية، أي أنها هي الذرة التي لا

---

(1) المترجم

تقبل القسمة والتي تكون مع ذرات أخرى تشبهها الجسم الاجتماعي. على عكس فلسفة أفلاطون الاجتماعية التي تقوم على هدم الزواج والقضاء على الأسرة.

وهناك اقتراحات أخرى لأرسطو في الميدان الاجتماعي كانت بمثابة قواعد هامة لخلق مدارس اجتماعية فيما بعد، ومن أهم هذه الاقتراحات ما يلي:

يعتبر أرسطو أن المجتمع عبارة عن مخلوق حي خاضع لقانون الولادة والنمو والموت، وهو يشير إلى أن التغيير هو الشرط الوحيد لحياة المجتمعات وتشكل هذه المجتمعات من عناصر متباينة ينتج عنها التسلسل في المراتب والحكومة وتقسيم العمل. وينتج من ذلك كله نظام من التوازن، وقد يفقد هذا التوازن نفسه:

أولاً– عندما يزداد عنصر من عناصر المدنية في عدده عن العناصر الأخرى.

ثانياً – عندما ترتفع نسبة مجموعة السكان بطريقة لا تحدها حدود. ويقول أرسطو في هذا الصدد: إن الدستور القديم يصبح غير ملائم للأوضاع الجديدة، فكل دستور يتلاءم مع عدد معين من السكان.

وكان أرسطو مثل أفلاطون ومثل جميع الفلاسفة السقراطيين بوجه عام تساوره دائماً فكرة الخوف من الفتن والاضطرابات التي كانت تضطرم بها دائماً المدن الإغريقية، وكان يعزو هذه القلاقل إلى عدم المساواة بين الطبقات، إذن فلابد للقانون أن يبحث له عن علاج لهذه المشكلة، ولكنه

يرى أن تحقيق المساواة لا يمكن أن يتم إلا عن طريق التحكم في عدد السكان، وهو يقول:

"إذا أراد المرء أن يحدد القيمة النسبية للثروات، فسيقوده ذلك إلى تحديد عدد الأطفال، وبدون ذلك سيعود عدم المساواة إلى الظهور من جديد. وبذلك تتشكل طبقة من الفقراء، وقد يكون من الصعب علينا أن نحول بينهم وبين القيام بثورات"

وبرغم أن أرسطو يثق دائماً في الذاتية الخلاقة فإنه بخصوص السكان يعتنق مذهب التدخل والتوجيه؛ فهو يتجه في هذا الميدان إلى تحديد سن الولادة وجعلها إجبارية في بعض الحالات وإلى منعها في حالات أخرى بفرض الإجهاض أو وأد الأطفال.

توسيديد Thucydide (نحو ٤٦٠ - نحو ٣٩٥ ق.م)

من أكبر المؤرخين الإغريق، وطريقته التي عرف بها هي أنه يذكر حقائق التاريخ بكل عناية ودقة، ثم يحاول أن يفسر أسبابها. ويعد مؤلفه: "تاريخ حرب البلوبنيز" من أغنى المؤلفات في قصص الحروب، فهو لم يقتصر على ذكر الحوادث ومدح الشخصيات الكبيرة، بل كان همه البحث عن تفسير الظواهر التاريخية، وهو يحلل المعتقدات والاتجاهات والقوى والمصالح المتضاربة في هذه الحرب الغامضة. ومع ذلك فقد اختتم مؤلفه هذا بتوضيح الدمار والتخريب الذي لاقاه العالم اليوناني على يديه هو، لا على يدي عالم آخر، ويعتبر هذا المؤلف كذلك فاتحة عهد جديد في فلسفة التاريخ.

وخلاصة القول أن دراسة هؤلاء الرواد الإغريق بعلم الاجتماع من الأهمية بمكان، لأنهم عرفوا الواقع والاتجاهات التي انبعثت منها فيما بعد جميع المدارس السياسية والاجتماعية. ويمثل أفلاطون الاتجاه "المتشدد" هذا الاتجاه الذي يوجس خيفة من الذاتية والأصولية ويشعر بعدم الثقة فيهما.

وينتمي الفرد في نظره جسماً وروحاً إلى المدينة، ومعنى هذا القضاء على كيان الأسرة التي تتعارض مع كيان الجماعة، وهو يعتبر أن الدولة لها الولاية الوحيدة على القانون والأخلاق، وهو يوصي بالرجوع إلى البساطة وإلى التقشف البدائي؛ وبذلك يعارض كل ارتقاء اجتماعي للأفراد، وهو يريد تحديد النسل في طبقات ثابتة لا تتغير وفي أعمال محدودة عن طريق السلطة.

ويمثل أرسطو الاتجاه المضاد؛ في اعتقاده أن علم الاجتماع – قبل كل شيء – علم ملاحظة. والمجتمعات عبارة عن مخلوقات حية تكون القاعدة فيها هي الحركة. واختلاف البيئة والتكوين هما اللذان يفرضان عليها الخلافات والاضطرابات.

الفكر الاجتماعي عند الرومان

وبعد أرسطاطاليس لم تجر هناك بحوث اجتماعية تقريباً. وقد اتجه التفكير الإغريقي فيما بعد إلى ميادين أخرى.

أما الرومان فلم يأتوا بجديد على المفهوم الأصلي لعلم الاجتماع، ولكن الفكرة الرومانية أدت دوراً كبيراً في علم الاجتماع الوصفي، وقد

أتاحت لهم فتوحهم الفرصة لدراسة عادات البلاد الأخرى ومنظماتها كفتوح الإمبراطور تاسيت Tacite بالنسبة للجرمانيين وفتوح يوليوس قيصر Jules Cesar بالنسبة للغال.

ويمتاز التفكير الروماني بطابعه العملي، والشيء الغريب حقاً هو أن الفكرة الاجتماعية للإمبراطورية العظيمة في الطرف الآخر من العالم تتشابه تماماً مع الفكرة الرومانية، وزيادة على ذلك .. فإن خصائصها مماثلة لها كل التماثل.

ويقول لويس ويبير Louis Weber: إن تجرد الرومان العلمي لا يواتيه غير أهل الصين. لقد أخرج الرومان. مثلهم في ذلك مثل أهل الصين، رواداً مبرزين في علم الأخلاق مثل شيشرون Ciceron و"سينيك" Séneque.

وكانت روما الإمبريالية هي الواضعة الحقيقية للقانون الحديث والتى عرفت أن تستخلص منه عبر عدة قرون المبادئ الأساسية. وبذلك أمكن الانتقال من ضيق القانون القديم وشكلياته إلى وضع القانون الطبيعي.

وينتج عن ذلك تطور بطيء للحالة العامة للإنسانية والعلاقات الاجتماعية. وتشكل هذه المفاهيم وهذه المعتقدات التي توجه هذه العلاقات ما يمكن أن يسمى بعلم الاجتماع الحقيقي.

الثورة المسيحية

عندما نتحدث عن المنظمات الديمقراطية للمدن الإغريقية، يجب ألا يغيب عن بالنا أن هذه المنظمات كانت تطبق مبادئها على قلة من

المواطنين. وكان الأرقاء بعيدين كل البعد عن التمتع بهذا الحق، وكان من رأي بعض الفلاسفة أن للرقيق شخصية خلقية تعدل شخصية سيده، وأن قتل الرقيق جناية تعدل قتل الحر، وأن الإساءة إليه تعدل الإساءة إلى الحر.

وقد دعا "سان بول" إلى تنقية مبادئ الإيمان بعبادة إله واحد من شوائب العادات القديمة اليهودية: مثل الطقوس الدينية وتقديس الأشخاص أو الأشياء، وقد أدى الأخذ بالمسيحية إلى نبذ فكرة تسلسل الآلهة التي أدت إلى تبرير نظام الطبقات في الحياة الاجتماعية.

وكان المفهوم الجديد للعالم يتميز بروح المساواة، ويعتبر الجميع سواسية أمام الله، وهذا يناقض منطقية نظام الطبقات الذي جرت عليه المجتمعات القديمة. وأصبح القانون وعلم الأخلاق شائعين بين جميع الناس على حد سواء، ولم يعد الفرد ملكاً خالصاً للمدينة على حسب المألوف القديم. وأصبحت واجباته الأخلاقية والدينية تفوق واجباته السياسية، وبذلك لم تعد الدولة هي الخالقة للقانون والأخلاق.

القديس أوجستان Saint Augustin (٣٥٤ - ٤٣٠)

كتب القديس أوجستان مؤلفه, مدينة الآلهة "La Cite de Cieu" ما في عصر من أقسى العصور في تاريخ الإنسانية فقد استولى الأريك Alaric على روما. وكان لسقوط هذه المدينة وتدميرها وقع في نفوس الذين عرفوها وخبروا ما فيها من ثقافة وعلم وعرفان. وكان للوثنيين نصيب كبير في سقوط المدينة العظيمة، ولشدة تأثر القديس أوجستان من هذا الموقف

أخذ على نفسه تدوين الحوادث الدامية فأخرج مؤلفه هذا.

ويبرز لنا هذا المؤلف صورة جامعة للحضارة في العصور القديمة، وكذلك نظرة إجمالية على تاريخ روما، ومن الوجهة الاجتماعية البحتة نجد في هذا المؤلف عدداً من الأفكار والتحليلات التي تعتبر دعامة قوية للمفاهيم القضائية والاجتماعية الحديثة، فقد عرضت ونوقشت فيه كل الآراء التي أدت دوراً هاماً في حياتنا الاجتماعية فيما بعد، وكذلك عرضت فكرة القانون الطبيعي، والحرية الطبيعية للإنسان وممارسة السلطة عن طريق الإكراه .. الخ، ونلمس فيه كذلك الخطوط العريضة للنزعة الإنسانية كما ستحدد فيما بعد ..

وتتضح مثالية أوجستان من مدى التناقض والتعارض بين مدينة، الإنسان وبين "مدينة الله" التي أطلقها على مؤلفه. وقد يعبر بهذين الاسمين عن اتجاهين متداخلاً كل منهما في الآخر.

فالاتجاه الأول: يعني الخضوع للمادة وعبادة الشهوات والقوة وحب الذات.

والاتجاه الآخر: يعني "التفاني في حب الله لدرجة احتقار الذات، أي الإيمان والخضوع، واحترام العدالة والرغبة في البذل والتضحية. ويقوم الاعتقاد الديني بدور مثالي في دفع الناس نحو بلوغ الكمال"

وتدعو المدينة السماوية إليها مواطنين من جميع الأجناس، وهي تشكل مجتمع من الناس من كل لغة وهي لا تلغي شيئاً ولا تدمر شيئاً من عادات مجتمعاتها، وهي تنقل السلام الدنيوي إلى السلام السماوي.

أما من ناحية شكل الدولة فإن أوجستان لا يفضل شكلاً على شكل آخر. وهو يوصي بأن من رجاحة العقل السياسي أن تسود العدالة جميع الناس، إذ بدون عدالة, لا تعني كلمة "ملك" سوى قاطع طريق، ولا يقصد بمعنى "مملكة" إن دلت على معنى غير معناها الذي وجدت من أجله إلا مخبأ للصوص وقطاع الطرق.

ويعتبر مؤلف أوجستان إلى حد كبير نقطة انتقال بين الحكمة القديمة والحكة الجديدة، وتكمن قيمته وروعته في أنه جمع بين الحضارة القديمة والحضارة المسيحية، وشرح كيفية الانتقال من الحضارة الأولى إلى الحضارة الأخرى.

ويعتبر هذا المؤلف آخر المؤلفات الرومانية، وكان هذا المؤلف من المؤلفات المفضلة التي قرأها واستوعبها شارلمان، وقد نهلت منه جميع المذاهب التي أضاءت له طريقه، وهدته إلى حسن السياسة التي رسمت مستقبل أوربا السياسي.

وهكذا نجد في مؤلفات علماء الجغرافيا ومحبي الأسفار وعلى الأخص منذ عصر هيرودوت Herodote .. مقارنات كثيرة بين الحضارة اليونانية وبين حضارة الشعوب الشرقية والإفريقية. واستمر هذا الاتجاه في العصور الوسطى أولاً عن طريق علماء الجغرافيا العرب مثل الإدريسي. (١٠٩٩ – نحو ١١٦٤)، وابن بطوطة (١٣٠٤– ١٣٧٨) وبعض الرحالة مثل بولو (١٢٥٤– ١٣٢٣) الذي يعتبر مؤلف أول بحث في وصف بلاد الشرق الأقصى، ثم أتت بعد ذلك القصص الاسبانية عن كشف العالم

الجديد، وأدب الرحلات وبقية الفتوح الأخرى التي بدأت منذ القرن السابع عشر.

ومن الصعب علينا أن نلمس في مؤلفات القرون الوسطى صورة واضحة عن علم الاجتماع، ولا نملك الآن مؤلفات عصرية تتحدث لنا بطريقة منظمة عن تشكيلات المجتمعات في القرون الوسطى.

وكان هناك في ذلك العصر اتجاهان هامان:

الاتجاه الأول: ينصب على الفارق البين – كما دعا إليه القديس أوجستان – بين العالم الزمني والعالم الروحي. ويضاف إلى ذلك التشاؤم الفظيع الذي نتج عن المكانة الكبيرة التي جعلتها مجتمعات القرون الوسطى للإيمان. "بالخطيئة الأصلية" وعقاب "النار" في الدار الآخرة.

الاتجاه الآخر: كانت مجتمعات ذلك العصر تتأرجح تبعاً للحوادث والظروف بين الآراء الحرة للقديس أوجستان وبين الالتزامات الارستقراطية التي كان يتطلبها نظامها الإقطاعي، وقد حرمت المسيحية على رجال هذه الطبقة أن يفرضوا التزاماتهم: مثل ذلك عدم زواج القساوسة لتلافي تشكيل طائفة كنسية على غرار طائفة الهند أو طائفة مصر القديمة.

ولنضف إلى ذلك ظاهرة أرى في غاية الأهمية انتشرت في مجتمعات القرون الوسطى، ألا وهي النزعة الوجدانية. وهذه الظاهرة نفسها انتشرت في المجتمعات البوذية كذلك.

وهكذا كانت معظم الأبنية التي تقام لعدة قرون في العالم الغربي مقصورة على الأديرة وكهوف التعبد.

ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦)

ولد ابن خلدون في تونس من أسرة أندلسية نزحت من الأندلس إلى تونس، ولما شب وترعرع عكف على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة، وبدأ حياته بدراسة الحديث والفقه المالكي وعلوم اللغة والشعر، ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد في أثناء حياته العملية.

ولم يكتب مقدمة مؤلفه التاريخي إلا وهو في نحو الخامسة والأربعين من عمره بعد أن نضجت أبحاثه ومطالعاته، وبعد أن خاض معترك السياسة، وبعد أن تقلب في خدمة القصور والدول المغربية دارسة شئونها ونظمها، ومتقصياً سيرتها وأخبارها، وشاهداً لأحوالها وتقاليدها في الحياة العامة والخاصة[1].

وكان لابد أن ننتظر قرابة عشرة قرون من الزمان لنرى بعث التفكير الاجتماعي الذي توقف منذ وفاة القديس أوجستان، فابن خلدون كان عبقرياً لامعاً في الفكر الشرقي، وهو يعتبر تلميذاً لأستاذه ابن رشد في الفلسفة. وقد شهد الحوادث التي أدت إلى اختفاء الدول الأخيرة الإسلامية في إسبانيا. ومولد الفوضى التي تفشت في شمالي إفريقية. وفي الشرق وصول جيوش التتار بقيادة تيمورلنك بلاد الشام، وعلى ذلك أثارت الحوادث التي ارتبطت بسقوط كل هذه المنظمات السياسية تفكيره وانتباهه، ولا يخفى علينا ما لمؤلفه "المقدمة" من أهمية كبيرة من الناحية التاريخية والاجتماعية.

([1]) للمترجم

وقد اتخذ ابن خلدون من التاريخ علماً يدرس، لا رواية تدون فقط، وقد كتب التاريخ على ضوء طريقة جديدة من الشرح والتحليل، فانتهى به التأمل والدرس إلى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية.

بيد أن ابن خلدون ينظر إلى موضوعه من أفق شاسع جداً، ويجعل من المجتمع الإنساني كله وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لتأمله، ويحاول أن يتتبع هذا المجتمع بالدرس والتحليل في جميع أطواره منذ نشأته وبداءته، وتردده بين الضعف والقوة والفتوة والشيخوخة والنهوض والسقوط. ويستقصى من خلال ذلك أحوال هذا المجتمع وعناصر تكوينه وتنظيمه .. من الفرد والجماعة إلى السلطان والدولة وما تقتضيه سلامة هذا المجتمع وما يؤذن بفساده وانحلاله.

وقد أعطى ابن خلدون التاريخ تعريفاً اجتماعياً حيث يقول:

"يهدف التاريخ إلى إفهامنا الحالة الاجتماعية للإنسان، أعني الحضارة، ويهدف كذلك إلى أن يعلمنا الظواهر التي ترتبط بهذه الحضارة وإلى معرفة الحياة البدائية وتهذيب الأخلاق وروح الأسرة والقبيلة، وتباعد وجهات النظر في أن سمو شعوب على شعوب أخرى يؤدي إلى نشأة إمبراطوريات وأسر حاكمة، وفوارق الطبقات والمصالح التي يكرس لها الناس أعمالهم ومجهوداتهم، مثل المهن المربحة، والصناعات التي تعين على الكسب، والعلوم والفنون، وأخيراً جميع التغييرات التي تحدثها طبيعة الأشياء في سلوك المجتمع"

ويعتبر تفكير ابن خلدون تفكيراً منتمياً إلى تفكير القرون الوسطى

بالنسبة إلى استسلامه للتشاؤم الذي عرف أنه من طبيعته المتغلبة عليه، وهو يمثل تطور العالم الإسلامي وقتذاك، وعندما أشرقت شمس الحضارة في أوربا، غربت شمس حضارة العرب تحت وقع ضربات الغزو المتلاحقة.

وابن خلدون لم يهتم بدراسة فكرة وجود سلطة شرعية وتنظيم تقليدي للمجتمع، ولكنه أخذ على عاتقه دراسة أصول التسلطات السياسية ومدة بقائها بطريقة موضوعية، وتشكيل الدول وانحلالها بعد استبعاد كل فكرة مبنية على قاعدة أو مبدأ. وكانت المشكلة بالنسبة له وصف ظاهرة دورية مستقلة عن الإرادة الإنسانية وتحديد أسباب هذا التعاقب المنظم لهذه الظواهر الدورية.

والنظرية التي أوردها تمثل بعض التشابه مع نظرية الظواهر الدورية التي وضعها أفلاطون، ومن وجهة نظر ابن خلدون فإن الاختلاف السيكولوجي بين الأجيال المتعاقبة هي التي تفسر تطور الأسر الملكية الحاكمة والأرستقراطية الحاكمة. ويقول ابن خلدون: إن الحياة الاجتماعية ما هي إلا ظاهرة طبيعية، وإن دعائم الحياة تنبثق خاصة من البيئة الجغرافية وتتأثر تأثراً كبيراً بنوع المناخ السائد، ويؤكد أن الظواهر الاجتماعية أكثر ثباتاً من الظواهر السياسية التي هي في واقعها ظواهر عرضية.

والإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يحتاج إلى سلطة بدونها لابد أن تسود الاضطرابات والفوضى؛ لأن الغرائز الشريرة تكمن فيه. أما من جهة السلطة فإنها لا تقوم إلا على القوة، وهذه القوة تتعلق بالجماعات التي تكتسب السلطة بفضل شجاعتها وتماسكها وتضامنها، وهذه

الصفات التي تخلق الاستعداد لأخذ السلطة ترجع أصولها إلى الحياة البدوية. ولكن ليس من نوع هؤلاء إلا القلة من البدو أو أنصاف البدو مثل الجرمانيين والمغول والتتار والنورمانديين الذين قاموا بكثير من الغزو في أسرع وقت وعلى أوسع نطاق.

وبعد ابن خلدون بزمن ليس بالقصير، توقف هذا الأسلوب من الغزوات والتسلط وانعكست القاعدة بعد أن ساد الحروب استخدام الأسلحة النارية.

ولكن لأسباب سيكولوجية، لم يعد استمرار التسلط لأسرة حاكمة، أو لأي حزب، أو لأية جماعة من الحاكمين أكثر من ثلاثة أجيال أي ما يقرب من مائة عام، لأن ممارسة التسلط والسلطان وما يكتنفهما من ملذات ويسر في الحياة، تتمخض لأصحاب هذه السلطة عن أجيال ضعيفة منهارة الأعصاب وفي غاية الانحلال.

ويرى ابن خلدون أن كل انقلاب سياسي لابد أن يجلب معه البحث عن حل لمشكلة الديون العامة والخاصة، أعني نوعاً من التصفية المالية العامة ونحن نعرف جيداً كيف، أدت ظاهرة الدين دوراً كبيراً في الموقف الاقتصادي الداخلي للمدن الإغريقية وفي الاضطرابات التي حدثت في روما والتي أدت إلى سقوط الجمهورية. وهذه الظاهرة دعامة من دعامات تفشي الفتن الداخلية وكثرة الاستبدادات.

وقد ابتدأ دستور سولون Solon بفقرة بوجوب إلغاء الديون، وقد لاحظ ابن خلدون ظاهرة غريبة، وهي أن تكاثر عدد السكان يحدث في

نهاية سقوط الإمبراطوريات مما يسبب كوارث اقتصادية ومتاعب لا حصر لها. وابن خلدون في مؤلفه يحلل عمل الدولة من الناحية الاقتصادية.

ويعد إنتاج ابن خلدون بداية هامة لعلم الاجتماع الوصفي، وهو يشمل تحليلاً دقيقاً لمنطقة شمالي إفريقية برمتها، ومازال ما كتبه ابن خلدون في هذا الصدد ينطبق على الهيكل الاجتماعي السائد اليوم في هذه المنطقة من العالم.

الفصل الثاني

العصور الحديثة

عصر النهضة:

ونعني بعصر النهضة الحركة الواسعة النطاق التي قامت على تجديد الحضارة الأوربية الغربية من القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر، وبهذه الحركة حل العالم الحديث محل عالم القرون الوسطى. ونذكر أن التطور الذي ارتسم في هذا العصر تناول الحياة المادية، والحياة الاجتماعية، والحياة الفكرية.

والظاهرة الأساسية لهذا العصر هي أن المثقفين فيه والفلاسفة والكتاب والفنانين والعلماء لم تنقطع صلتهم المباشرة بمفكري اليونان وروما، ولكن هناك حقيقة لها من النتائج مالا يعد ولا يحصى؛ ففي القرون الوسطى لم تفترق عقلية المفكرين عن عقلية عامة الشعب، أعني أنهما لم يفترقا كلاً عن الآخر في المعتقدات والاتجاهات.

ولكن منذ عصر النهضة، خرجت الحياة الفكرية عن الإطار الشعبي، وقد لمسنا هذا الانفصال في العقلية في ميدان العلوم والفنون والآداب في أوائل هذا العصر. أما الانفصال في ميدان الفلسفة .. فقد تأخر كثيراً عن بقية الميادين الأخرى، لأن محاولات انفصال الفلسفة عن عقلية عامة الشعب كانت تتأثر كثيراً بتقاليد العصور الوسطى عن طريق حساسية

علماء اللاهوت.

ويبدأ هذا العصر بإعداد فلسفة جديدة عن طريق النقد النزيه لفلسفة المتشككين: وقد تناول هذا النقد الفلاسفة الإيطاليين مثل لارتان L' Aretienوبوكاس Boccace وإلى حد ما .. مكيافللي Machiavel والفلاسفة الفرنسيين مثل رابليه Rabelais ومونتيني Montaigne.

ومن جهة أخرى، فقد مست يد التغيير "الوسط الاقتصادي" في نهاية القرون الوسطى، فنشأت المدن الكبيرة وكانت مركز إشعاع لمناقشة المشاكل الاجتماعية، ومنها انبعثت مجتمعات جديدة ذات طابع خاص بجانب مجتمع الإقطاعيين. وقد نشأت في الجمهوريات الإيطالية مدن تجارية وثقافية لتنافس المدن الإقطاعية، وقد دفعت بعض الاختراعات التكنيكية والاقتصادية إلى سهولة حركة الأموال والأشخاص. وقد ساعد نظام الكمبيالات في الحد من تهريب الأموال لحساب الإقطاعيين. ونشأت عن ظهور البنوك وبعض الصناعات المهمة علاقات معقدة لم يكن لها وجود في مجتمع القرون الوسطى، وكانت أولى البلدان في خلق هاتين الظاهرتين إيطاليا وهولندا وبلجيكا.

والجدل الذي أثير حول حركة "الإصلاح" دفع المفكرين أن يتعمقوا دراسة كل التراث الديني والفلسفي ليبحثوا فيه عن حجج وبراهين تعينهم على الإيمان وعلى الاعتقاد فيما ورثوه عن العصور الوسطى.

وبمناسبة المناقشات التي أثيرت حول الانقسامات الدينية بين الشعوب وبين الملوك وبين طبقات النبلاء والملوك، يدخل عنصر آخر في المناقشات

هو والمشاكل السياسة، أو بتعبير أدق مشكلة السياسة. وقد وضعت على بساط البحث والتحليل بين المفكرين أسئلة عن طبيعة السلطة السياسية وشرعيتها وحدودها والتسلسل الاجتماعي وما يطرأ عليه من تغيرات.

ولكن عصر الحضارة لم يقتصر على الأخذ بمفاهيم الإغريق في كل هذه المشكلات السياسية والاجتماعية "فاجتماعية" الإغريق ثابتة يسودها التشاؤم. أما المسيحيون الأوائل فقد كانوا متفائلين لاعتقادهم إمكانية تغيير الناس من وجهة النظر الأخلاقية، ومن جهة أخرى فإن الاعتقاد في "الخطيئة الأصلية" وتسلط فكرة (الإثم) والعذاب الأبدي في انتظار نهاية سعيدة، ضاعفاً من تشاؤم مجتمع القرون الوسطى.

وفي هذا العصر اتخذت جميع الأبحاث من المشكلات الاجتماعية طابع التفاؤل، هذا الطابع الذي لم تعرفه قط ولم تتذوقه قط مجتمعات العصور القديمة والوسطى. وقد تميز هذا العصر أولاً بالاعتقاد في التقدم، وخاصة في بداية القرن السابع عشر؛ فقد أحس الناس بأنهم أكثر رقياً وعلواً عما سبقهم من أجيال. وقد رأى هذا الرأي كل من ديكارت وفيكوولوك ومنتسكيو وفولتير وكوندورسيه، هؤلاء الذين لم ينكروا أن من سبقوهم من أجدادهم الفلاسفة العظام، تبوؤا هم كذلك مكاناً مرموقاً في ميدان علم الأخلاق، ولا ننسى موقف روسو وتلاميذه من مهاجمة عقيدة "الخطيئة الأصلية" ومن دعوته إلى الرجوع إلى الصفاء أو الطهارة البدائية.

ويلزمنا أن ننتظر حتى القرن الثامن عشر لنرى كيف تبلورت كل هذه الاتجاهات في العصور السابقة إلى علم اجتماعي موضوعي؛ ولكن في

مستهل القرن السادس عشر ظهر اتجاهات في هذا الميدان:

الأول: اتجاه تجريبي لميكافيللي وعلماء الاقتصاد مثل بودان **Bodin** ومونتكرستين **Montchrastien** ويوتيرو **Botero**.

الآخر: اتجاه مثالي يتمشى مع التقليد الأفلاطوني .. أي يواجه حقيقة المدن المثالية ذات التنظيم الخيالي "كاتيوبيا توماس مورس مثلاً، بمدينة الشمس لكامبانيلا.

ميكافيللي وهوبز (١٤٦٩ - ١٥٢٧)

كان مما يخفف من تحكم القوى في الحياة السياسية في القرون الوسطى أربعة عوامل:

١- روح الفروسية التي كانت نتاج المعتقدات الدينية في العالم المسيحي كما في العالم الإسلامي على حد سواء، ومن حقيقة أرستقراطية التنظيم العسكري.

٢- تشييد القصور الضخمة التي كانت تستخدم للدفاع.

٣- الاستقرار المكتسب عن طريق القانون السياسي الإقطاعي والاعتراف بشرعيته.

٤- المعتقدات الدينية.

وقد حد من هذه القوى بعض العوامل الأخرى وأثارت نوعاً جديداً من التفكير في نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، ومن تلك العوامل: ضعف المعتقدات الدينية في النفوس والانقلابات التي

حدثت في أواخر القرون الوسطى مثل غزوات الغول والتتار والأتراك وسقوط بيزنطة في الشرق، أما في الغرب فالانهيار المطرد للنظام الإقطاعي القديم وتدمير معظم المدن الإغريقية.

ميكافيللي Machiavel (١٤٦٩ - ١٥٢٧)

ولد نيكولو ميكافيللي في مدينة فلورنس، وبعد أن شب وترعرع اشتغل سكرتيراً للسياسة الخارجية في حكومة موطنه الأصلي، وفي هذا المنصب قام بعدة مهام سياسية في إيطاليا وفرنسا وألمانيا. ولما تبوأ آل مديتشي الحكم للمرة الثانية في فلورنس عام ١٥١٢ قبض عليه بتهمة التآمر، وتعرض لعذاب شديد وهو في السجن، ثم أفرج عنه بوساطة البابا ليون العاشر، وبعد خروجه من السجن اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه "الأمير".

وتختلف دراسة ميكافيللي عن ابن خلدون للتاريخ وللظواهر الاجتماعية، فهو يركز دراسته على الدولة فقط أو على أنواع معينة من الدول القديمة، وخاصة تاريخ إيطاليا في عصره، ثم يحلل شخصية رئيس الدولة وما يتصف به من صفات حسنة أو سيئة. ويمتاز أسلوب ميكافيللي بسلامة المنطق، ودقة العرض والتحليل وصفاء الأسلوب.

إذن فميكافيللي يستمد آراءه ونظرياته من حوادث التاريخ القديم وبالأخص من حوادث العصر الذي عاشه، فهي حوادث شهدها بنفسه، وخبرها ثم بني عليها أحكاماً وقواعد عامة.

وهو يدعو في فلسفة السياسة إلى النفاق والشح والضعة والقسوة

والإرهاب والغدر وعدم الإخلاص وإهدار الصداقة والأمانة والدين، مما ينافي المثل الفاضلة وتشمئز منه الأخلاق الإنسانية. كل ذلك طالما أنه يرضي الرغبة في التسلط والشهوة الملحة في السيطرة على الحكم، فهي لا تتنافى مع الخلق والمثل العليا، ومن ثم كان رئيس الدولة الأمثل في نظره. من اتصف بهذه الصفات.

وبالرغم من طابع هذه الفلسفة السوداء فإنه يصوغ فلسفته وآراءه في كثير من القوة والبراعة وبعد النظر. وهذه النظريات والمبادئ، مازالت مسيطرة كل السيطرة على عقول بعض الساسة في القرن العشرين. ومع الأسف فإنها تظفر بالنجاح في بعض الميادين، وقد عرفت باسم "السياسة المكيافيلية"[١]

وتبين حالة كل من ميكافيللي وهوبز أنه عندما تضعف المعتقدات في المبادئ الأخلاقية والتشريعية التي هي أسس كل تنظيم سياسي، ينتج عن ذلك فراغ كبير في ميدان الآراء. وإذا ما اختل مقياس صواب القانون، نرى تغلب فكرة القوة. وتقوم حياة المجتمعات عند ميكافيللي على ممارسة القوة، وتتلخص سيكولوجية مثل هذه المجتمعات في الجملة المشهورة التي نطق بها ميكافيللي "عند الناس ميل للشر أكثر من الخير"

ولكن فلسفة ميكافيللي لم تقتصر على مثل هذه الاعترافات، بل أنه حاول، أن يستخلص من التجربة التاريخية علماً سياسياً .. أو بالأحرى فناً قائماً على تحليل دقيق للقوى والمصالح المتنافرة التي تتقابل معاً ثم يصطدم بعضها بعض داخل الدولة. وهو يشرح ويعرض التاريخ الروماني على هذه

([١]) للمترجم

الصورة. وتحتل المنظمات السياسية الرومانية مكانة عظيمة، لأنها وصلت إلى الجمع بين ثلاثة نظم مختلفة: ملكية، وارستقراطية، وديمقراطية.

والأهمية التي يتصف بها هذا المؤرخ الفلورنسي هي أنه أعطى فلسفة التاريخ "والسياسة الاجتماعية" وجوداً مستقلاً.

ديكارت Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠)

ولد في "لاهاي" La Haye في إقليم تورين وتلقى تعليمه في مدرسة الجزويت ثم درس القانون في باريس، ثم بدأ سلسلة من الرحلات في ألمانيا وهولندا وسويسرا وإيطاليا واشترك في حرب الثلاثين. وقد عرفته هذه الأسفار "بعالم الناس" والحق أنه كان محيطاً بكل ما كان في مقدور الإنسان أن يحيط به في عصر كانت فلسفته منهجاً للتفكير الواضح، ومن ثم التفكير المفيد في العالم من أجل التوصل إلى السيطرة عليه والحصول على قدر أكبر من الرفاهية للبشر(١).

والطريقة الديكارتية التي نفذت عليها عقول الفلاسفة الذين أتوا من بعده، وأحدثت دوياً في عالم التفكير القائم على العقل، لم تهمل بتاتاً دراسة العلوم الاجتماعية والمذاهب السياسية، ولم يكن يريد أن يتعرض لمثل هذه الأمور، انظر حيث يقول:

"قررت ألا أبحث عن أي علم. اللهم إلا معرفة نفسي أو معرفة كتاب العالم الكبير، وقضيت شبابي في السفر وزيارة القصور والجيوش والتعامل مع رجال من مختلف الاستعدادات والمراتب وجميع التجارب المختلفة

---

(١) للمترجم

وتجربة نفسي في مختلف الأوضاع"

ومع ذلك، نجد في مؤلفات ديكارت بعض وجهات النظر التي تشكل آراء واضحة وأفكاراً خصبة في مادة الاجتماع، وهو يؤكد أن كل تقدم اجتماعي لابد أن يسبقه تقدم في الفن الطبي، لأن الروح تعتمد بقوة على المزاج وعلى مدى استعداد أعضاء الجسم. وإذا كان من الممكن أن نجد بعض الوسائل لنجعل الناس أكثر حكمة واتزاناً فإنني أعتقد أنه يمكن أن نجدها كذلك في الطب.

سبينوزا Spinosa (١٦٣٢ - ١٦٧٧)

ويمثل سبينوزا نقطة انطلاق نقطة انطلاق في عالم الفكر ويصور ثورة كاملة على عقلية العصور الوسطى، فهو يمثل مرحلة جديدة من التاريخ البشري في طريقها إلى الظهور، مرحلة كشفت عن آفاق جديدة كما حملت فئات اجتماعية جديدة إلى عالم النور. وقد ذهب في آرائه الفلسفية أبعد مما ذهب فيها ديكارت وخاصة فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية.

وهو يقول:

"إن الناس يعيشون في الأصل تحت سلطان العاطفة وحقوقهم لا تعادل إلا قوتهم في صراع دائم"

وقد عالج بأسلوب جديد المشكلة الكلاسيكية في فلسفة القرون الوسطى وهي التمييز بين الأفراد: كيف يمكن أي فرد أن يحافظ على حقيقة وجوده في حين أنه جزء من المجتمع؟

وهو يرى أن هذه المشكلة يمكن حلها بضرورة التعاون بين أفراد المجتمع بعضهم وبعض.

ويرى أن الإنسان لا يستطيع عن طريق مساعدته الخاصة أن يصل إلى القوة وإلى حرية الفكر وعلى وجه أكمل. ويستحيل الحصول على المعرفة العلمية الحقيقية وكذلك الحياة المادية إلا بالاتحاد القوي. وكلما حصل الفرد على قسط أكبر من الحرية ومن القوى الثقافية .. كلما قل الصراع بين الأفراد في المجتمع، وهذا يؤدي إلى دفع هؤلاء إلى البحث عن كل ما يفيدهم ويعينهم كمجموعة.

ويثور سبينوزا ضد مبادئ الأخلاق في القرون الوسطى التي كانت تدعو إلى التقشف في الحياة وإلى التعبد والتكفير عن الآثام.

وهو يقول في هذا الصدد: إن اللذة أمر حسن في ذاته، والألم أمر سيء في ذاته كذلك، ولهذا فإن الحقد والخوف والاحتقار والتوبة والخضوع تعد أموراً سيئة وتكمن الحكمة الحقيقية في تأمل الحياة لا في تأمل الموت.

إن الطبيعة الإنسانية لا تختلف في إنسان عن آخر، وعلى ذلك فليس هناك داع إلى الخوف من الناس، والنتيجة ضرورة وجود احتياجات أمن أكثر ضد هؤلاء الذين يحكمون تجاه الذين يُحكمون.

ويقول سبينوزا: إن المجتمع الذي يشكل عن طريق تعاون الأفراد وتضامنهم هو المجتمع الذي يحافظ على خصائصه الطبيعية "أعني اتجاهاته الفطرية". إذن فالمجتمع عبارة عن وحدة فيزيقية خاضعة لقوانين جوهرية في جميع أجزائها. ومجموعة هذه القوانين التي لا يقوي المجتمع على تغييرها إلى أي شيء والتي

عليها يرتكز المجتمع بثقله تسمى القانون الطبيعى، ومن وجهة أخرى فإن المجتمع عبارة عن جهاز من القوى، ولا يعتبر مجتمعاً ذا قوة وذا حقيقة واقعة إلا إذا منحه الأفراد هذه القوة وتلك الحقيقة في جميع الأوقات.

والمجتمع الذي يقوم فيه السلام على جمود أفراده وسكوتهم التام وعدم الحركة – هؤلاء الأفراد الذين يتركون أنفسهم يغدون ويروحون كقطيع، ومن ثم لا يمارسون إلا العبودية – لا يعد مجتمعاً بأية حال، بل يعتبر وحدة لا حياة فيها.

وعلى ذلك يرى سبينوزا أن الاستقلال الفردي والوحدة العضوية للدولة يعتمد بعضهما على بعض اعتماداً مباشراً، فالفرد الاجتماعي يستطيع أن يتعايش مع أفراد آخرين ليشكلوا عن طريق مشاركة الوجدان بينهم فرداً جديداً أكثر رحابة .. وهكذا إلى مالا نهاية.

وفي هذا العصر تشكلت مجموعة من المذاهب والنظريات التشريعية التي تعالج القانون الطبيعي للإنسان والقانون الدولي.

لوك Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ويونج Young

ولد فى ورنجتون وهو فيلسوف إنجليزي، اشتهر بأنه من رواد الفلسفة التجريبية. والفلسفة التجريبية هدفها تطبيق العقل على عدد من الأفكار والأنظمة التي كانت تساند الامتيازات. وكانت فلسفة لوك تنصب على مهاجمة التقاليد والحكم التعسفي وسلطة الكنيسة. وكانت هذه الفلسفة تعبيراً صادقاً عن آمال الطبقة المتوسطة النامية في إنجلترا والتي اصطدمت آراؤها وآمالها في الحياة بالأسرة المالكة وبالمجتمع الأرستقراطي وبسلطة

رجال الدين. وكان تصارع كل هذه الطبقات من أجل الحصول على قدر من الحريات السياسية والاقتصادية. وكل آرائه التي دونها هنا وهناك جمعها في كتاب أطلق عليه اسم "محاولة في المفهومية الإنسانية"

ودعوة لوك إلى تنظيم الكنيسة والدولة طبقاً للمبادئ التي أثبتت التجارب العلمية أنها تؤدي إلى سعادة المجتمع ورفاهيته، إنما كانت ثورة بمعنى الكلمة على الأفكار الموروثة والتقاليد المرعية في المجتمع الإنجليزي.

وقد انتشرت أفكار لوك في بقية بلاد أوربا بوجه عام وخاصة في فرنسا حيث نقلها عنه الفيلسوف فولتير وآمن بها كثير من فلاسفة الغرب في ذلك العصر، وأطلقوا عليها اسم فلسفة التنوير، وكانت بمثابة مقدمة – مع مبادئ أخرى مجتمعة – للثورة الفرنسية.

وكان لوك يعتقد أن هناك نظاماً طبيعياً للمجتمع لا يحيد عنه، نظاماً يقبله العقل ولا ينقضه الواقع الذي نعيش فيه. وهناك إنفاق طبيعى بين أفراد المجتمع للمحافظة على حقوقهم وحماية ممتلكاتهم. ومن فوق هذا النظام هناك نظام مغاير للطبيعة، ومناف للعقل: ألا وهو نظام الامتيازات والأنظمة الطبقية. ولوك يهاجم بشدة بعض المساوئ التي يلمسها في مجتمعه الإنجليزي، ومنها الاغتصابات التي تقوم أساساً على أفكار قبلية وهو بذلك ينبذ الأفكار الموروثة التي لا تساير العقل والواقع الذي يعيشه والمبادئ القبلية التي عاشها وشهد مساوئها في المجتمع الإنجليزي.

ومن أهم الأفكار التي نادى بها لوك تلك الفكرة التي تقول: إنه عندما تعتدي حكومة ما على حقوق الإنسان الطبيعية أو تفشل في احترامها والمحافظة

عليها، تصبح الثورة مشروعة من الناحيتين الطبيعية والعقلية.

ومن ثم كان لفلسفة التنوير – التي التصقت باسم لوك – تأثير كبير على الفلاسفة الأحرار الذين نقلوا المجتمع من ظلمات العصور الوسطى إلى أنوار الحقيقة. وهذه الفلسفة تنادي إلى جانب ذلك بأن الإنسان طيب بطبيعته وأنه نتاج البيئة إلى حد بعيد أو نتاجها كلية، وتنادي كذلك بوجوب ممارسة الإنسان لكل ما هو إنساني حقاً .. بحيث يتعود ممارسة ذاته ككائن بشري. وإذا كانت الظروف هي التي تصوغ الإنسان فمن الواجب أن تصاغ هذه الظروف بطريقة إنسانية، وإذا كان الإنسان اجتماعياً بطبيعته فإنه لا ينمى طبيعته الحقيقية إلا في المجتمع. ومن ثم لا تقاس مدى قوة طبيعة الفرد في المجتمع، إلا بما للمجتمع من قوة، وإذا كانت المصلحة الشخصية المستنيرة مبدأ كل نظام أخلاقي، فيترتب على ذلك أنه يجب أن نعمل على التقاء مصالح الإنسان الخاصة بالمصالح البشرية جميعاً. وبذلك كان لوك يؤمن بأن المبادئ البسيطة للحياة الاجتماعية التي تضمن للناس حريتهم وملكيتهم مبادئ عقلية وطبيعية معاً[1].

لقد بين كل من "لوك" و"يونج" بنظرياتهما عن توارد الخواطر .. الشروط السيكولوجية للتكامل الإنساني. وقد قدما عدداً من المبادئ كانت الأساس لما سمي فيما بعد "بفلسفة الأنوار".

وقد حاول أحد الكتاب الإنجليز وهو "ماندفيل" – في مؤلف أحدث عاصفة من النقد عند ظهوره ونعني به "أقاصيص النحل" – أن يبين أن

([1]) للمترجم

العيوب التي يندد بها رجال الأخلاق كالشره. والنهم والكبرياء والخيلاء وغير ذلك من العيوب التي سمحت بتقدم المدنية والفنون.

أما بالنسبة "للفيزيوقراطيين" Physiocrates فهم يؤمنون بوجود عدد معين من القوانين الطبيعية التي تحكم حياة المجتمعات .. على الأقل حياتها المادية. وتؤمن المدرسة "الفيزيوقراطية" التي أسسها كيسناى Quesnay طبيب مدام دى بومبادور .. بأن هذه القوانين ضرورية ودائمة تماماً كالوظائف العضوية للجسم الإنساني. وهذه القوانين تتحقق بنفسها، أي أن أي تدخل يعرقلها ويشلها. وقد يكون "الفيزيوقراطيون" خير من يمثلون عقلية القرن الثامن عشر، فهم يعتبرون التنظيم الطبيعي هو التنظيم الأمثل، ويعتقدون كذلك أن التقدم الاقتصادي وتطور المدنية يعدان من الأمور الطبيعية التلقائية، وأن أي تدخل يوقف هذا التقدم ويعرقله.

آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ - ١٧٩٠)

ولد في كير كالدي في اسكتلندا، ويعتبر من أوائل الذين عالجوا المشاكل الفلسفية والاقتصادية. ومن وجهة نظره أن الاقتصاد والفلسفة توأمان لا يفترق كل منهما عن الآخر وهو مؤلف كتاب "أبحاث عن الطبيعة وأسباب ثروة الشعوب"

وهو صاحب نظرية أن العمل سبب الثروة، وأن القيمة تقوم على العرض والطلب، وأن التجارة يجب أن تحرر من كل تحريم ومن كل تقييد[١].

ويضيف آدم سميث إلى نظريات الفلاسفة الطبيعيين وجهات نظر

---

(١) للمترجم

أخرى فلسفية تشكل منها نظم اجتماعية ذات أهداف أكثر قوة واتساعاً. والواقع أن آدم سميث مؤسس المدرسة المتحررة في الاقتصاد بدأ أول ما بدأ عالماً نفسانياً وعالماً في الأخلاق. ونظريته في علم الاجتماع هي نظرية الفلاسفة الطبيعيين في علم الاقتصاد تعني أن هناك قوانين طبيعية لتنظيم المجتمع، قوانين صادرة عن العناية الإلهية، وأننا يجب ألا نقف حائلاً بينها وبين استخدامها، فهي دعامة من دعامات تطور الحضارة.

كوندورسيه Condorcet (١٧٣٤ - ١٧٩٤)

فيلسوف ورياضي فرنسي، ولد في ريبمونت. وقد اشتهر عنه أنه عالج كثيراً من المشاكل السياسية، ومن أجل هذا قبض عليه وأودع السجن، وقد حاول الانتحار بتناول السم ثم أنقذ في آخر لحظة.

ويقول: إن التقدم عبارة عن تجمع المعارف العلمية وتطبيقاتها وهي التي تعين على رفع مستوى مستقبل الإنسانية. وطالما أن الطبيعة تمنح العلم معيناً لا ينضب من الاكتشافات فإن صفة الكمال للجنس البشري تبلغ والحال هذه حداً لا يمكن وصفه.

وفي كتابه "صورة عن تقدم الفكر الإنساني" يصف المراحل التي مرت بها الإنسانية تواً، ثم يرسم في الوقت نفسه الخطوط العريضة للتطورات المرتقبة، وهو يقول:

"سيأتي وقت لن تشرق فيه الشمس إلا على عالم من الرجال الأحرار الذين لا يعترفون بسيد سوى عقولهم، وعندئذ لن يكون هناك طغاة أو عبيد أو كهنة أو أدوات أولئك من الأغنياء والمنافقين إلا في كتب التاريخ

وعلى خشبة المسرح"

كنت kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤)

ولد هذا الفيلسوف الألماني في كوينجسبرج، وهو أول من قام بالدعوة إلى التصالح بين العلم والدين، وأفكاره في هذا الميدان تعتبر من أعظم الأسس الفكرية التي عبر عنها عقل الإنسان. وكان "كنت" يعرف تماماً إفلاس المفاهيم الدينية التقليدية والطابع الاجتماعي والرجعي للدول الألمانية الصغيرة، ولكنه لم تكن لديه الشجاعة الكافية لقطع صلته بالقديم.

ويقول آدم سميث: إن أعمال الأفراد تؤدي في مجموعها وفي هدفها الأخير إلى خدمة المصلحة العامة للجماعة. و"كنت" يشرح هذه الفكرة نفسها بطريقة ميتافيزيقية وينتهي بها إلى النتائج التي انتهى إليها آدم سميث نفسها.

وكنت – من وجهة نظره – يرى أن نظرية الحكم الحر وتلقائية الفكرة والأعمال الإنسانية تؤدي إلى الانسجام الاجتماعي، وكذلك نفاياته الميتافيزيقية بطريق غير مباشر تؤدي إلى نتائج ملموسة في الميدان الاجتماعي.

جان جاك روسو J. J. Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨)

ولد في جنيف وهو ابن لتاجر مجوهرات بروتستانتي، وقد فقد والدته عقب ولادته مباشرة، ولم يقو أبوه على تعليمه تعليماً أكاديمياً، ولذلك أمضى فترة من شبابه هائماً على وجهه لا يعرف له مستقراً، ولا يدري أي وجهة يوليها؟ وفي ذات ليلة رجع إلى المدينة متأخراً، فوجد أبوابها مغلقة في وجهه، فآثر أن يرحل عنها إلى ما شاء الله ... فأخذ يتنقل من مدينة إلى أخرى حتى أنتهي به المطاف إلى باريس. وأمضى بها بعض الوقت، ثم رجع

إلى مدينة شامبري في سويسرا حيث تعهدته سيدة شابة وأخذت على عاتقها أن تهديه سواء السبيل، ولكنها فشلت في تقويمه وتهذيبه، وانتهى بها الأمر إلى تركه يفعل بنفسه ما يريد، ثم اشتغل سكرتيراً لسفير من السفراء في فينسيا، ولكنه اختلف معه فقفل راجعاً إلى باريس، وهناك عكف على دراسة الفلسفة والاختلاط بالفلاسفة، وحول ذلك تعلم الموسيقي، ولكن النجاح لم يواته في هذا الميدان.

كانت فلسفة "التنوير" التي عاصرها روسو تقوم على قطع كل صلة بتفكير العصور الوسطى، وكانت تهدف إلى تنوير العقل والعلم من ظلمات الماضي وإلى وضع الإنسان في قلب عالم جديد منظم.

ويعتبر جان جاك روسو أول من دعا إلى البحث عن الوسائل الكفيلة برفع مستوى حياة الناس، وعن مبدأ الأخوة، وقد عرض كل آرائه سواء الفلسفية منها أو السياسية أو الاجتماعية في كتابه المشهور "العقد الاجتماعي"

وهو يبدأ كتابه بجملته المشهورة التي تقول:

"إن الإنسان ولد حراً، ولكنه مكبل بالأغلال في كل مكان"

وهو يقول: "إذا افترضنا أن القانون الاجتماعي لا يمكنه أن يأبى من الطبيعة فإن بعض الناس قد يملكون سلطة تجاه الآخرين، وبذلك قد تأتي هذه السلطة عن طريق حق سابق، أو عن طريق القوة، أو عن طريق فقدان الحرية التي هي في الأصل عبودية. والواقع أن أي فرض من هذه الفروض ليس له سند حقيقي"

ونحن لا نعتقد أن السلطة أصبحت ممنوحة لبعض الناس عن طريق

الحق، فالناس سواسية وأحرار بالطبيعة، ولا يمكن أن يقارن النظام الاجتماعي بالنظام العائلي. وفي الأصل يتشكل المجتمع من عدد كبير من الأسر المختلفة، ولكن إذا ما أخذنا في اعتبارنا أن رب الأسرة له سلطة طبيعية على أفراد أسرته فهذا لا يعني بتاتاً: لماذا لا تكون مثل هذه السلطة تجاه عديد من الأسر مجتمعة وتكون ممارستها عن طريق رب أحد هذه الأسر؟

وتبعاً للطبيعة لا يظل الابن مرتبطاً وقتاً طويلاً بأبيه، فهو في حل من الانفصال عن أبيه عندما يشعر بأنه يمكنه الاعتماد على نفسه وتدبير حياته بنفسه. وعلى العكس فإن الأسرة إنما هي امتداد للإنسانية، وليس هناك أناس ولدوا ليطيعوا وآخرون ولدوا ليحكموا.

والسلطة التي تأتي عن طريق القوة من وجهة نظر روسو لا تمنح صاحبها حقاً من الحقوق، وإذا ما اضطر الإنسان إلى أن يخضع لهذه القوة بوماً ما، فليس عليه جناح إذا لم يطعها .. وينتهى روسو إلى القول بأن الحق الاجتماعي لا يأتي من الطبيعة، بل إنه قائم على ارتباط بين أفراد المجتمع الواحد تجاه الآخر. وإذن .. فالمجتمع في نظره يرتكز على عقد أو ميثاق، أي على ارتباط متبادل متفق عليه بين أفراد هذا المجتمع[1].

يقترح روسو نظرية جديدة لتنشئ شرعية السلطة السياسية، فالسيادة المطلقة إنما هي للشعب الذي لا يمكنه أن يتخلى أو ينزل عنها.

وروسو يستند في ذلك إلى صفة الحق المطلق الذي لا يسقط أبداً عن الفرد منذ ولادته كإنسان. وليست هناك قوة ولا سلطة تعرف تقدير شخصية

([1]) للمترجم

الإنسان واستقلاله الفطري، ومن هنا يعتقد روسو أن الإنسان كان خيراً وحراً وسعيداً، ولكن المجتمع هو الذي جعله خبيثاً، وعبداً، ويائساً.

ومع ذلك .. فروسو ينقض هذا الرأي من جديد، ويذكر أنه من الاستحالة أن نرجع إلى الوراء، بل يجب أن نخضع للمجتمع. إن جميع الناس في هذا المجتمع يرتبط الواحد منهم بالآخر تمام الارتباط بميثاق، وهذا الميثاق هو الذي يسوي بين الناس قاطبة في الحقوق والواجبات، كما أنه يجب أن يكون هناك عقد بين الشعب وحاكميه الذين اختارهم بمحض إرادته. هذا العقد الذي يدفع الشعب وحاكميه إلى ملاحظة القوانين التي اتفقوا عليها والتي تشكل روابط اتحادهما معاً.

فلسفة التاريخ

ج. ب. فيكو J. B. Vico (١٦٦٨ - ١٧٤٤)

مؤرخ وفيلسوف إيطالي ولد في نابولي. وكتابه "مبادئ علم جديد" هو أحد المؤلفات التي تدل دلالة واضحة على أن "فيكو" من الرواد الأوائل. لفلسفة التاريخ، وهو يعتبر أن تطور التاريخ يحتوي على ارتداد لدورات من الزمن متشابهة كل التشابه وأنها تتمثل بخط حلزونى. وكل الشعوب من وجهة نظره ملزمة على نمط واحد بأن تمر "بالعصور" التي توالت بعضها وراء البعض الآخر. وهو ضد فلسفة "العقلية" لديكارت، فهو بدلاً من أن يلجأ إلى طريقة التحليل المجردة، لجأ إلى "المسلمات الملموسة" التي تأتي عن طريق الدراسة النقدية للتاريخ، وعلى الأخص التطور المتوازي للغة وللمنظمات التي يطلق عليها في دراسة النصوص وتطورها.

وتعتبر فلسفة "فيكو" جديدة في نوعها وغنية بعناصرها، وهو يدعو إلى سيكولوجية تهدف إلى التدليل على أن "العناية الإلهية" خلقت عواطف ونزوات للإنسان في سبيل خير الحضارة. إنه ينادي بعض الوسائل الاجتماعية على طريقة علم الاجتماع الحديث. فهو عندما يدرس أو يضع أسساً لمشاكل اجتماعية، يرجع دواماً إلى الحالة الاجتماعية التي كانت عليها التنظيمات السياسية أو الاجتماعية في العصور القديمة. وهو يستغل في دراسته المؤلفين القدماء، ولكن لا يأخذ بطرائفهم ولا بشواهدهم بل يعتمد الاعتماد كله على دراسة نصوص تراثهم الأدبي والفكري.

ويعتبر "فيكو" أول مبشر بظهور أوجست كونت وقانون "ثلاث الحالات" فن وجهة نظره، أن كل مجتمع لابد أن يكون قد مر بثلاث مراحل متعاقبة الواحدة بعد الأخرى.

(١) المرحلة الإلهية، وهي مرحلة الشعراء الدينيين الذين خلقوا الأساطير.

(٢) المرحلة الثانية: مرحلة "الطبيعة الباسلة" التي تغلب عليها الروح الأرستقراطية. وكانت هذه المرحلة عصر أشيل Achille وكثيرين من أشباه الإمبراطور رومولوس Romulus الذين امتلأت بهم الأساطير القديمة وتحدثت عنهم كأبطال ميامين وكأنصاف آلهة.

(٣) المرحلة الثالثة: مرحلة "الطبيعة الإنسانية الذكية" وطابع هذه المرحلة طابع المساواة والفكر والعقل والواجب.

ومن وجهة نظر أخرى، فإن "فيكو" يعد رائداً أول لمؤرخي القرن التاسع عشر. ويقرر ميشيليه Michelet أن أستاذه في التاريخ ومعلمه هو

فيكو، وهذا ما يؤيد الدور الهام الذي ينسبه فيكو إلى "الرأي العام" فالرأي العام من وجهة نظره هو الذي يحكم أخلاق المجتمع والقانون، وهو يقول:

"يمنح الشعب القوانين الروح التي تطيب له، ويتحتم .. إن طوعاً أو كرهاً .. على السلطات أو القوى الحاكمة أن تلاحظ هذه القوانين في الروح التي تطيب الشعب والتي تعلق بها"

ولم يفت فيكو التحدث عن الوجدان الاجتماعي كما تحدث عنه فلاسفة القرن الثامن عشر والتاسع عشر الفرنسيون من مونتسكيو إلى روسو، إلى سبنسر.

وميشيليه المؤرخ الفرنسي كان هو الآخر مقتنعاً بالقيام بهذا الدور الخلاق للشعب؛ ولذلك نلمس في كتاب ميشيليه "تاريخ فرنسا" **Histoire de France** مدى التجديد في فلسفة التاريخ، ففلسفته كانت قائمة على دراسة المنظمات السياسية والآراء وانحيازات الفكر العام، وكانت دراسة مثل هذه القضايا أكثر أهمية في نظر ميشيليه من دراسة قوائم أسماء الملوك والوزراء والندماء والمعارك.

ويمكن أن نرى في فيكو رائداً آخراً من رواد نظرية الطبقات الاجتماعية، وعلى أية حال .. فإنه يعلن أن أهمية هذه النظرية هي معرفة أن السلوك السياسي للأغلبية العظمى من الأفراد محدود عن طريق موقفها الاجتماعي. وعند فيكو إدراك سليم وواضح للتناقضات التي تعزي إلى اختلاف المهنة والمرتبة ومصادر الثروة في داخل شعب واحد. وقد لاحظ

أن هذه المتناقضات لم تتوقف قط.. لأنها ترتكز على التشكيل الأصلي للمجتمع وللبنيان السياسي لا على الناس، وكلما ألغيت مجموعة من هذه المتناقضات ظهر جديد منها.

إذن .. ففيكو يقرر شيئين .. هما:

من جهة .. قدرية التطور.

ومن جهة أخرى .. اتجاه متحرر في ميدان المنظمات السياسية. وله شبه كبير باتجاه الفلاسفة الطبيعيين (الفيزيوقراطيين) في الميدان الاقتصادي.

ويقول في هذا المقام:

"بما أن المجتمع من صنع واقع غريزي واضح لا لبس فيه ولا غموض فتكون الخلاصة أن الاتجاه الأحسن والأكثر اتزاناً وحكمة هو ذلك الاتجاه الذي يترك للمنظمات السياسية أن تخلق من نفسها أحسن الوسائل الممكنة لتطور هذا الدافع الغريزي دون إجبار أو إكراه"

مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥)

ولد في قلعة (لابريد) قريباً من مدينة "بوردو" وبعد أن أتم دراسته الثانوية درس القانون، ثم تقلد منصب مستشار قانوني في برلمان مدينة بوردو. ثم اعتلى منصب رئيس محكمة وهو في سن السابعة والعشرين. وفي عام ١٧٢٦ أعفى نفسه من هذه المهمة وآثر الترحال والتنقل من بلد إلى آخر ثلاث سنوات تقريباً زار فيها جزءاً كبيراً من بلاد أوربا وعلى الأخص إنجلترا التي أقام فيها وقتاً طويلاً، ثم قفل راجعاً إلى فرنسا حيث أمضى فيها

بقية حياته بين قريته التي كان يشرف فيها على مزارعه بنفسه متأملاً فيها الطبيعة .. وبين المجتمع الباريسي دارساً إياه.

وكتاب مونتسكيو "روح القوانين" **La Saprit des Rois** يعتبر من أعظم مؤلفاته في فلسفة التاريخ. فقد قضى في إعداده حوالي عشرين سنة. ويجمع هذا المؤلف جوانب كثيرة من السياسة وأنظمة الحكم المختلفة وما تحمل من مساوئ ومحاسن، وفيه معالجة صريحة للمجتمع وما يجب أن يكون عليه. فقد رأى أن القوانين تبدو حقائق ناتجة عن تجربة، ويضع في حسابه الجنس والعصر والوسط وكل الشروط التي تحدد والروح .. وفي الوقت نفسه يستخلص من الحالات الخاصة مبادئ عامة. ويصف التشكيلات الهامة للحكومة بصفات خاصة .. فالحكومة الملكية قائمة على الشرف، والحكومة الاستبدادية قائمة على الخوف، والحكومة الجمهورية قائمة على الفضيلة. وهو يدعو إلى فصل السلطات بعضها عن بعض: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية[١].

ويعتبر مونتسكيو القانون من المداخل البراقة للوصول إلى ميدان العلوم الاجتماعية، فهو يقول:

"إن القوانين تعبر عن العلاقات الضرورية التي تشتق من طبيعة الأشياء"

وينطلق مونتسكيو من هذا التعريف محاولاً أن يقيم عدداً معيناً من العلاقات الثابتة بين المنظمات السياسية والتشريعية للشعوب وأحوال

---

(١) للمترجم

معيشتهم وخاصة مناخهم. وعلى ذلك فالأخلاق من وجهة نظر مونتسكيو انعكاس للقوى الدافعة المتأثرة بالمناخ، ولذلك يقول أيضاً:

"إن الديانات في البلاد الحارة لا تتشدد في عقاب خطيئة الجسد، كما أن ديانات البلاد الباردة لا تتشدد في عقاب الإدمان على الخمور"

ويرى مونتسكيو أن التنظيمات الاجتماعية قائمة على علاقات ثابتة بين طبيعة الإنسان والبيئة، وينتج من هذين العنصرين مجتمعين ما نطلق عليه "الروح العامة" أي العقلية والرأي.

وعندما يحاول مونتسكيو التحدث عن نظرية السلطة السياسية يربط الصور الهامة للسلطة السياسية بالمثل الأعلى الاجتماعي السائد، وهو لا يعد في هذا الرأي عن رأي أفلاطون، وهو يوضح أن أية حكومة في أية صورة أو شكل يجب عليها أن تتخذ عدداً من المعتقدات دعامة لها، وأهم هذه المعتقدات هي التي تتضمن مثلاً أخلاقياً أعلى، فالحكومة الملكية مثل الأعلى الذي يدعمها ويحفظ كيانها هو الإحساس بالشرف، والحكومة الاستبدادية .. الخوف، والحكومة الجمهورية .. الفضيلة.

وعندما يضعف هذا المثل الأعلى في أي شكل من أشكال الحكومات الثلاث فإنها تنهار وتترك مكانها لحكومة أخرى ذات شكل آخر. فإذا تقدم الإحساس بالشرف في الشكل الأول، تحولت إلى حكم الأعيان أو إلى حكومة الأثرياء، وإذا عدم الإحساس بالخوف في الشكل الثاني، انهار صاحب الحكم الاستبدادي إلى النهاية وتقوض نظامه من أساسه. وإذا عدم الإحساس بالفضيلة في الشكل الثالث، يصبح الجمهوريون حكاماً

فوضويين ومستبدين.

وتهدف دعوته في فصل السلطات إلى عدم طغيان الواحدة على الأخرى، ويرى تطبيق هذا الشيء نفسه في المجتمع كما لا تطغى طبقة على طبقة.

الفصل الثالث

العصر الحاضر

المتشائمون

لقد شهدت أواخر القرن الثامن عشر انتصاراً ساحقاً لآراء وأفكار الفلاسفة الطبيعيين وعلماء الاقتصاد المتحررين؛ فقد ألغيت تماماً أو اختفت نهائياً النظم التعاونية وتحديد أسعار المنتجات والتنظيمات الاقتصادية المحدودة.

وقد صاحب هذه الفكرة نمو في الثروات وفي الإنتاج لم تعهده الإنسانية من قبل، ولكن هذه "الديناميكية" في تضخم الثروات وفي غزارة الإنتاج لم تخل من مسار ومضار؛ فقد عم البؤس والفقر الطبقة العمالية، وانتشرت البطالة بين صفوف العمال وانخفضت أجورهم، وذلك يعزى إلى تحرر المذاهب الاقتصادية وانطلاقها من غير قيد أو شرط ما أدى إلى كثير من المنافسات التي لا عنان لها ولا حدود. وكانت الخطورة في ميدان المنافسة تظهر بوجه خاص في محاولة الاستيلاء على الأسواق الخارجية.

وقد استطاع كل من "ريكاردو" Ricardo (١٧٧٢ – ١٨٢٣) ومالتوس (١٧٧٦ – ١٨٣٤) أن يبينا بعض جوانب الاقتصاد الحر، وقد كانا من الأوائل الذين ندعوا بالنزعة التفاؤلية لرجال الاقتصاد الكلاسيكيين. وكان اعتراضهما الأول هو "بخل الطبيعة" فقانون الغلة

المتناقصة في الميدان الزراعي بين أن العمل يمكن أن يصبح لا جدوى من ورائه حينها تزداد حدته، كما أن قانون الدخل الزراعي يبين أن أهم الأرباح هي تلك التي لا يستحقها أصحابها، أما قانون السكان الذي وضعه "مالتوس" فإنه يبين كيف أن الطبيعة تقاوم، بطرق عنيفة، ازدياد معدل الخصب. وعالج "داروين" (١٨٠٩ – ١٨٨٢) موضوع "الاختيار" ونزعة البقاء للأصلح، وهكذا انتهت الميول التفاؤلية التي سادت المذاهب الفكرية في القرن الثامن عشر عن هؤلاء الكتاب أمام حروب نابليون الكثيرة.

هيردر Herder (١٧٤٤ - ١٨٠٣)

الناقد الألماني والفيلسوف والواعظ والمعلم، ولد في "مورونجن" في بروسيا الشرقية لأبوين فقيرين، ولكنه لم يقتصر في الأثر الذي تركه على أحداث ثورة في الأدب الألماني بكتابه "Sturm and Drang" بل وترك أثراً عميقاً في التفكير الألماني الفلسفي والسياسي وتطور القوميات في أوربا الشرقية. وقد درس اللاهوت والفلسفة في كينيسبرج من ١٧٦٢ – ١٧٦٤ متكسباً خلال هذه الفترة من التدريس في كلية فريدريك بهذه المدينة، وقد استمع في الجامعة إلى محاضرات إيمانويل كنت، الذي أخذ عنه شغفه بالجغرافيا والعلوم الإنسانية، وعقد علاقة صداقة وثيقة مع هامان Haman الذي وجه اهتمامه إلى الشعر والنقد مع تأكيد أهمية العاطفة في الإنتاج الأدبي وفي تقدير مثل هذا الإنتاج، وقد وجه هامان اهتمام هيردر إلى المحاولات الأدبية البدائية في كتاب "العهد القديم".

وفي أواخر عام ١٧٦٤ ذهب إلى "ريجا" حيث عمل مساعد أستاذ في مدرسة الكاتدرائية وظل في المدينة إلى عام ١٧٦٩ حيث أصبح معلماً وواعظاً في مكانة مرموقة. وكان أول أعماله الكبيرة هو Uber die nevere deuts the Literature الذي نشر عام ١٧٦٧ ووضعه في مركز رفيع بين كبار نقاد الأدب، بيد أن عدم استقراره دفعه إلى ترك ريجا، كانت فكرته هي السفر للحصول على الخبرة عن العالم، وعند عودته إلى ريجا ناظراً "لليزيوم" في ريجا وضع إصلاحات تعليمية هامة جديدة، وقد سافر هيردر إلى "نانت" حيث أخذ يفكر في حياته ويضع مشروعات كبيرة بشأن المستقبل في مجالات التعليم والفلسفة والأدب والدين. واتضح له أن رسالته في الحياة هي دراسة التاريخ البشري بكل مظاهره من بداياته الأولى ليتبين الاتجاه الذي لابد للمجتمع البشري أن يسير فيه في المستقبل
.

وقد زار باريس وفي أثناء عودته إلى ألمانيا تحطمت السفينة التي كان يستقلها ولكنه نجا من الموت. وقد زار دار مشتاوت حيث التقى بالفتاة التي قدر له أن يتزوجها فيما بعد، كما ذهب إلى ستراسبورج حيث التقي "بجوته Goethe" وقد تحدث إليه بآرائه الجريئة عن نشأة الشعر وأطلعه على الأدب الشعبي وغير ذلك من شعر شكسبير والعهد القديم. وبعد ذلك أصبح واعظ البلاط في قصر الكونت "شاد مرج ليبي" في بيكبرج، واستمر في أبحاثه في الحركة الأدبية الجديدة وكتب عدداً من الأعمال الدينية والفلسفية، وقد تزوج عام ١٧٧٣، وفي عام ١٧٧٦ دعى بتأثير نفوذ "جوته" ليصبح مشرفاً وواعظاً في فايمار، حيث أحيط بالحسد الضغط

الذي أثر عليه لحساسيته الشديدة وساءت صحته إلى أن توفى في فايمار التي كانت فترة حياته فيها قصة تدعو للأسى. بيد أنه تمتع بصداقة "جوته" الوثيقة بين عامي ١٧٨٣ و١٧٩٣ وإن كانت حدثت فرقة بينهما في آخر الأمر، ولا شك أن كلاً منهما قد ترك في الآخر أثراً كبيراً.

وقد وضع هيردر أعظم أعماله في أثناء الفترة التي قضاها في فايمار ومنها Volkslieder (١٧٧٨ – ١٧٧٩) وآيدين (١٧٨٤ – ١٧٩١) التي حاول أن يحقق فيها أحلامه في أثناء رحلته البحرية، وقد توفي في ١١ من ديسمبر عام ١٨٠٣. وهو مؤلف الكتاب جامع شامل لآرائه السياسية والاجتماعية أطلق عليه اسم "فلسفة تاريخ الإنسانية" de Philosophie l'Historie de l'Humanite[١]

ويؤيد هيردر فكرة أن لكل شعب نوعاً من الروح تفرض على أفراده طريقة في التفكير وفي الشعور غير قابلة للمشاركة مع أي شعب آخر.

وبالنسبة للإنسانية، تكمن قيمة الفرد في صفاته الشخصية، ومن وجهة نظر المدرسة "الهيردرية" تعتبر القيمة الفردية جزءاً من النمو العضوي للمجتمع. وفي مدينة ستراسبورج بفرنسا عام ١٧٧٠ شرح هيردر للشاب "جوته" أن الشعر الشعبي والملحمة والحق الطبيعي ما هي إلا جوهر لكائنات مجردة لكنها مخلوقات حية يتضح فيها من غير وعى "روح جماعية" وتلك هي الروح الشعبية التي عبر عنها هيجل بكلمة volksgeist في رسالته للحصول على درجة الدكتوراه في عام ١٧٩٣.

---

(١) المترجم

وقد ترجمت هذه الكلمة إلى معنى القومية في ألمانيا وفي فرنسا. وهم يقارنون القومية بجهاز ضخم يشكله الناس الذين هم أعضاؤه "كأوراق الشجرة".

ويبدو من هذا التاريخ كيف كان الطابع المشترك لعلوم الاجتماع ذات الاتجاه المتحفظ في مقارنة المجتمعات والدول بأجسام كائنات حية لا تستطيع أن تتطور وتنمو إلا تلقائياً دون أن يكون للإرادة الواعية دور فيها.

وبذلك تتضح النتائج الاجتماعية لمبادئ، هيردر، فهي تعبر عن "اللجوء" إلى "متاهات" الفلاسفة المدرسيين، وهي تغلب الشيء الذي يصعب التعبير عنه وتفسيره، وفلسفة القدماء فيما يختص بالتحليل والوجدان والعقل، وبالاختصار إلى الرجوع إلى نظريات ومبادئ. العصور القديمة التي كانت تؤمن بالقومية والعنصرية.

وقد انغمس هيردر في دراسة الثقافة القومية الألمانية من بدايتها البربرية ودرس أصل لغتها وحضارتها القديمة إلى تاريخها ونظمها في العصور الوسطى كما درس فنونها الشعبية التقليدية وآثارها، وكان هدفه من ذلك خلق صورة جديدة للمجتمع الألماني تكون مسئولة عن وحدة نموها القومي الخاص بها.

وقد انعكس رد الفعل هذا في الميدان الاقتصادي، وكانت وجهة نظر الفلاسفة الطبيعيين والمتحررين، إلغاء كل المضايقات الاقتصادية والمهنية التي كانت تثقل كاهل الناس منذ القرون الوسطى، مثل نظام الاتحادات

والعبودية والعمل الإجباري أو الإلزامي. وفي ميدان التبادل التجاري كانوا يهاجمون تدخل الحكومة في توجيه الاقتصاديات فكانوا يؤيدون التبادل الحر للسلع والنقود.

وكان أول صوت ارتفع ضد وجهات النظر هذه صوت (فشته) Fichte (١٧٦٢ – ١٨١٤) وهو معروف كفيلسوف أكثر منه شيئاً آخر، وفي كتابه الذي أطلق عليه الدولة التجارية المقفلة L'Etat Commercial Ferme يتحدث عن النظرية الكاملة للاكتفاء الذاتي بمعنى أنه يجب على أي شعب أن يكفي نفسه بنفسه، وأن يستهلك منتجاته الخاصة به، وأن يتجنب الصادرات، كما أن عليه إزاء ذلك تجنب الواردات سواء بسواء. معللاً ذلك بأن السياح عامل إفساد لآداب الشعب وأخلاقه، وأنهم يشكلون منظراً من مناظر الكسل.

ومن وجهة أخرى فإن التركيب الاجتماعي لأوربا الموروث عن القرون الوسطى كان قائماً فيما يختص بالتسلسل على مبادئ، معقدة وغالباً متضادة متنافرة. وهذا النظام أثر من آثار أنظمة الطوائف في العصور الرومانية، ويضاف إلى ذلك انقسام المجتمع إلى ثلاث طبقات: طبقة النبلاء، وطبقة رجال الدين، وطبقة أفراد الشعب المتخلفة.

وقد أثارت الحملات العنيفة ضد الامتيازات التي كان يتمتع بها النبلاء موجة من الدفاع المضاد في مخططات هذه المذاهب الاجتماعية: ففي فرنسا كانت حجة المدافعين عن امتيازات طبقة النبلاء تنحصر في أن هذه الامتيازات ناتجة عن حق غزو مارسه أبناء هؤلاء الغزاة الشرعيين تجاه

هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم. والغريب في الأمر أن كثيراً من الكتاب والفلاسفة قاموا بالدعوة لهذه الآراء في مؤلفاتهم، ونخص بالذكر الدبلوماسي والكاتب الفرنسي جوبينو Gobineau (١٨١٦ – ١٨٨٢) في كتابه المشهور Essai sur l'gnegalite des Races Humaines ويعد جوبينو من أكبر غلاة نظرية الأجناس وعدم مساواتها في الكفايات إلى المبالغة في القول بأن هناك دماً زنجياً يجري في عروق جميع أفراد الطبقة الفقيرة في فرنسا. وقد تحمس الألمان إلى حد كبير لآراء جوبينو وذهبوا بها مذاهب بعيدة من القومية المتعصبة إلى نظرية الأجناس التي اعتنقها النازيون أيام حكمهم وأدخلوا في روع الشعب أنهم أسمي الأجناس.

ومن جهة أخرى كانت هناك فلسفة أخرى في القرن الثامن عشر تدعو إلى الأخذ بآراء الفلاسفة اليعقوبيين الذين كانوا دعاة للفلسفة التفاؤلية في هذا العصر، والذين كان يعرف عنهم تحمسهم الجنوني لنظام الديمقراطية ووجوب تطبيقه في المجتمع. وكان محتوي هذه الفلسفة التفاؤل التحرر وإيمان روسو بفضائل الشعب التي هي المصدر الوحيد للسلطة الشرعية. يضاف إلى هذه الآراء الرأي القائل بأن الملوك كان من مصلحتهم الفصل بين الشعوب وعدم جواز اختلاط بعضها ببعض.

ولكن الغزوات النابليونية جرحت الشعور بالقومية وأدمته باحتلالها العسكري المستمر للبلدان وبسلبها لأموال الشعوب المغزوة، وبمصادرة ما فيها من منتجات وسلع ... الخ، وهكذا أسبغت هالة على أفكار هيردر الألماني التي انحدرت إلى عالم الأدب.

وقد اعتنق الفلاسفة الرومانتيكيون آراء أخرى مضادة لآراء القرن الثامن عشر. إن "القومية" التي ظهرت في بداية القرن التاسع عشر كانت صورة لرد فعل عام شعبي ضد النزعة الدولية لسيادة الطبقات الحاكمة في القرن الثامن عشر وضد الإنسانية نفسها.

جوزيف دي ميستر Joseph de Maistre (١٧٢٣ - ١٨٢١)

ولد في شمبري Chambery وبعد أن أتم دراسته العليا اشتغل بالقضاء كأبيه من قبل، ثم هاجر إلى لوزان وأخذ يتنقل في بعض بلاد ايطاليا. وأخيراً استقر به المقام في سردينيا. وشغل فيها وظيفة مهمة ثم أرسلته حكومة سردينيا سفيراً لها في روسيا. ولكن حكومة ذلك الوقت لم يعجبها منه دفاعه عن الجزويت عند طردها إياهم، فطلبت منه العودة إلى بلاده التي يمثلها[١].

وهو يعتبر من ألمع الكتاب السياسيين، فقد كتب في بعض مؤلفاته مدافعاً عن الآراء السياسية القديمة ووجوب عدم التخلي عن ممارستها وهاجم مدرسة روسو وجميع الآراء التي انبثقت عنها. وانتقد الاتجاه الثوري الذي يدعو إلى نبذ التنظيمات القديمة.

وجوزيف دي ميستر يعطي الطريقة التجريبية في دراسة المجتمعات قيمة كبيرة، وبدعوته إلى هذه الطريقة يأخذ جانب المعارضة ضد الطريقة العقلية، ويضيف إلى ذلك أنه يتحتم حل جميع المشكلات التي تتعلق بطبيعة المجتمعات عن طريق التاريخ.

---

(١) للمترجم

أما فيما يختص بالسلطة العليا في الدولة، فإنه تبعاً لمفهوم التجربة التاريخية على حد قول جوزيف دي ميستر، لا يوجد لها أصل خارق لطبيعة الأشياء، بل إنها جزء من البنيان الفطري للمجتمعات، وقد اعتبر جوزيف دي ميستر المثل الوحيد للقضية "الشرعية" في عصر كانت فيه هذه الكلمة لا تدل إلا على الأسر الحاكمة التقليدية. (الأسر المالكة) ولكنه لم يدرك أن أي مذهب سياسي ينصهر في النهاية في نظرية "شرعية السلطة".

ومع ذلك فإن أفكار جوزيف دى ميستر في السياسة والمجتمع أفكار معقدة وينحاز في بعض النقاط إلى آراء الفلاسفة المتحررين، فهو مثلهم تماماً في الدعوة إلى النشاط التلقائي الذي عن طريقه تتضح وتظهر الرغبات العظيمة والأهداف العليا للأفراد في المجتمع. وكان يعارض بشدة الحملات الشديدة واللعنات القاسية التي كانت توجه إلى تقدم الحضارة وتطور الفنون والاختراعات من قبل مدرسة روسو التي كانت تنادي بأن الإنسان في الأصل "خيِّر وسعيد" ولكن تقدم العلوم والفنون أفسده إلى حد ما وأفقده كثيراً من سعادته البدائية. والواقع يناقض رأي مدرسة روسو حيث أن التقدم لا يباعد بتاتاً بين الإنسان والطبيعة لأن الفن هو "طبيعة الإنسان" وهو يدعم رأيه بحجة أخرى حيث يقول:

"وإذا خالف النشاط الإنساني قوانين الطبيعة، فقد نسي إنضاج بيضه، وقد نلمس في آرائه فكرة التوازن، فهو يعتقد أن هناك قوانين تسوس توازن المجتمعات وهذه القوانين لها من المرونة الكافية التي تؤدي إلى إذابة هذه المجتمعات بعضها في البعض الآخر مع حسن إدارة القائمين، عليها وتحررهم".

سان - سيمون Saint - Simon (١٧٦٠ - ١٨٢٥)

فيلسوف فرنسي ولد في باريس، وعندما أتم دراسته التحق بالجيش ثم تطوع في صفوف المحاربين من أجل استقلال أمريكا، وهناك أتيحت له الفرصة لدراسة التنظيم السياسي للولايات المتحدة ومن ثم اتجه إلى دراسة القضايا الاجتماعية. وعند عودته عين ضابطاً برتبة "كولونيل" في الجيش الفرنسي ولما يبلغ الثالثة والعشرين من عمره. وفي عام ١٧٨٥ ترك الخدمة وآثر السفر إلى مختلف البلاد للدراسة[١].

وهو من عائلة أرستقراطية ترجع أصولها مباشرة إلى شرلمان.

وقد اغتبط سان سيمون كثيراً بنجاح الثورة الفرنسية وكان يعتبرها مقدمة لعدة ثورات أخرى لابد أن تتناول الميادين الاقتصادية والاجتماعية في المستقبل، وبذلك نراه عاصر عهد ما قبل الثورة وما بعد الثورة، أي أنه عاش فترة انتقال جمعت بين عهدين متناقضين كل التناقض، ومتنافرين كل التنافر.

وكان كل تفكير سان سيمو منصباً على تحسين مصير الإنسانية ومصير الطبقات الفقيرة عن طريق العلم والصناعة. وفي هذه المناسبة يقول:

"إن المجتمع الإنساني هو الآن في طريق الانتقال، بل هو يجب أن ينتقل من نظام الحكومة القائمة على حكم الإنسان إلى نظام التسلط على غيره كالمرافق وشئون المجتمع"

([١]) للمترجم

وهو يعني بذلك أن نظام الحكومة المعروف قبل الثورة كان نظاماً قائماً على استغلال طبقة لطبقة أخرى، وعلى تسلط فريق من الناس على الفريق الآخر: فالطبقة الأولى أو الفريق الأول هم الإقطاعيون أو النبلاء، والفريق الآخر هم الرعايا.

وهو يفترض أنه إذا حدث في ليلة من الليالي أن وباء من الأوبئة المخيفة قضى دفعة واحدة على حياة طبقة الأمراء والنبلاء والوزراء والقضاة ورؤساء الجيش، فلا شك أن الشعب الفرنسي سيبكي وسيتأثر كل التأثر لموت هؤلاء جميعاً، لأنه شعب عاطفي، ولكن النتيجة أنه لن يحدث انهيار للشعب وفقدان لكيانه كمجتمع من زوال هؤلاء. وإذا حدث العكس وقضى الوباء فجأة على حياة العلماء والصناع فلا شك أنه ستتخلف عن هذا كارثة وخسارة كبيرة للمجتمع، لأن هؤلاء لا يمكن تعويضهم. وهو يريد أن يخرج من هذا الاقتراض بأن بنيان المجتمع قد تغير، وأنه يجب أن يقوم البنيان الجديد على الصانع والعالم.

وطالما أن سان سيمون هدفه الأول والأخير رفاهية المجتمع الإنساني ورفع مستواه فهو يعتبر أن من المشاكل الأساسية في المجتمع عدم تنظيم الإنتاج الاقتصادي. لذلك يدعو إلى أن يكون الإنتاج الاقتصادي في مصلحة الجميع، وهو يرى أنه كيما ننهض بالتقدم، يجب إلغاء أو تحديد حق الإرث، ونمنح كل فرد في المجتمع على حسب طاقته، ولكل طاقة على حسب إنتاجها.

ويدعو سان سيمون جميع المنتجين الزراعيين والتجار والمتعهدين أن

يقيموا فيما بينهم جميعه إنتاج، كما يدعو فتات الصناع أن تأتمر بأمر رؤساء مصانعها دون مناقشة تلافياً لتعويق الإنتاج. ويتحتم أن يمارس هؤلاء "السلطة السياسية" أما العلماء فيمارسون "السلطة الروحية" لكي يهذبوا جمهرة الشعب خلقياً وعلمياً، وبذلك يستطيع المجتمع أن يرث كل هذه الثروات الناتجة عن هذا النظام.

ومن هنا يعتبر سان سيمون من المنشدين الحقيقيين للاشتراكية التي تأخذ بهذا الشكل "التحكمي"، فهو يدعو إلى مجتمع تحكمه أرستقراطية من الفنيين والممولين والصناع، أي أنه يعتبر أول من دعا إلى إقامة مجتمع من "الفنيين" Technocrates وأول من أعلن عن الدور العام الذي يؤديه "الإداريون" في إدارة المصانع ومدى تأثيرهم على الإنتاج.

وكان لسان سيمون تلاميذ كثيرون ساروا على هديه، واقتفوا أثره واتخذوا من فلسفة آرائه مثلاً عالياً لهم، فكونوا جمعية دينية تضمهم جميعاً ولكنها حلت بعد وقت غير قليل بأمر من البوليس، وانصرف بعض أتباع سان سيمون إلى مزاولة النشاط الاقتصادي فكان الأب "أنفانتان" Enfantin من الرواد الأوائل الذين عملوا على إدخال السكك الحديدية في فرنسا. كما كان "بيرير Pereire" أول من أنشأ بنكاً تجارياً وأقام أول شركة للملاحة عبر الأطلسي.

فوريه Fourier (١٧٧٢ - ١٨٢٧)

فيلسوف فرنسي ولد في بيزانسون، وهو ابن لتاجر أصواف، ولم يتمكن من مواصلة دراسته الجامعية فالتحق ككاتب في متجر، واستمر

يعمل في هذه الوظيفة متنقلاً من متجر إلى آخر حتى بلغ سن الستين، ونرى أن هذه الوظيفة التي شغلها طيلة حياته، مكنته من الاختلاط بكثير من الناس على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ونوع سلوكهم في الحياة. وقد زود نفسه بجانب ذلك بكثير من القراءات في كتب التاريخ والفلسفة لمن سبقوه.

ويمكن اعتبار فوريه من رجال علم النفس الاجتماعيين، وكان طابع سيكولوجيته قائماً على تحليل العواطف الإنسانية، وهو في هذا المقام. لا يعدو كونه يوضح لنا ويحلل العواطف التي تثير الإنسان وهو يحاول أن ينشئ علاقة متبادلة بين إحساسات البشر والتنظيمات الاجتماعية.

ويؤكد فوربيه أن سعادة الجنس البشري تنشأ تلقائياً عن المنظمات الجديدة السياسية التي توقفت عن منع الطبيعة البشرية من الانطلاق على سجينها، وعن الحيلولة بينها وبين ظهورها على حسب فطرتها، ولا يتحتم أن تكون الثورة مقصورة فقط على الميادين السياسية والاقتصادية، بل يجب أن تتناول كذلك الميادين الاجتماعية. ويعني بهذا عملية تحويل وتغيير القيم. وهو يقترح على منوال أفلاطون نموذجاً من البيان الاجتماعي الذي يبدو له أنه في إمكانه تحقيق توازن على درجة من الكمال، وحيث تزدهر فيه وتنمو الطبيعة الإنسانية بكل طاقاتها الحيوية.

يقول فوريه: إن التصنيع لا يخلق إلا زيادة في عدد الفقراء، وإن التجارة تلقى ظلالاً من الاضطراب والفوضى على الميكانيكية الصناعية، فهو يقترح إلغاء العمل الصناعي، وإحلال العمل الحر محله، وينصح بإنشاء

جمعية تعاونية إنتاجية Phalanastere حيث يلتقي فيها الإنسان بملامح القرية والقبيلة البدائية، وحياة القصور والصناعة. وفي هذه الجمعية يتاح لعدد من الناس أن يعيشوا معاً في إطار مناسب ويتحتم، على جمعية "الفلاناستير" (مذهب فورييه) أن تكفي نفسها بنفسها وأن تنتج كل ما هو ضروري من مختلف الحاجات لأعضائها، وبذلك يختفي العمل بالأجر طالما أن كل عضو في هذه الجمعية سيصبح منتجاً ومستهلكاً في وقت واحد معاً، وبذلك يعم السلام جميع الناس قاطبة.

ويعتبر فورييه من بعض جوانبه رائداً من رواد طريقة التحليل النفسي، وبذلك كانت له بعض الآراء عن كيفية تنظيم العمل في المجتمع، وهو يركز على الحقيقة القائلة بأن الإنسان عنصر متعدد القيم، فهو موهوب بالاستعدادات والميول المختلفة في جميع الميادين، وعلى ذلك يتحتم علينا والحالة هذه ألا ندعه يقوم بأعمال "روتينية" تخلف فيه كثيراً من الملل وتدفعه إلى الثورة، بل يتحتم أن نحول العمل إلى نوع من الرياضة كما يكون أكثر جاذبية. ويبين أن تقسيم العمل الذي لا حدود له، له نتائج مختلفة، فقد يكون عاملاً في بلد الإنسانية أو بلاهتها، وقد يكون العكس. وعلى ذلك ينبغي أن ينظم العمل بواسطة مجموعات يتقارب أعضاؤها من الناحية السيكولوجية. والهدف من هذا التنظيم هو جعل العمل أكثر جاذبية وعاملاً من عوامل القضاء على المصادمات والخصومات في المجتمع، وإذا سادت روح التفاهم المجتمع، وأصبح سلطانه قوياً، فإن ذلك قد يتيح توازناً قائماً على مبدأ "كل يكمل الآخر".

وينقد فورييه كل الطرائق التربوية القائمة على الإكراه والإلزام، فهو

كروسو يحترم بشدة التربية القائمة على التلقائية والميول الفطرية، وهو أول من دعا المربين إلى الأخذ بطريقة "الكشف المدرسي" في التعليم.

وهو يؤمن بالعناية الإلهية ويرى أن جميع الاتجاهات التي وضعها الله فينا كلها طيبة وخيرة على شرط أن نعرف كيف نأخذ جانب الخير والطيبة دائماً.

وكان فوريه أول المشتغلين بدراسة قضايا المرأة وأثر هذه القضايا على المجتمع، فهو قد سبق أوجست كونت **Auguste Comte** في هذا الميدان بتأكيده أن تقدم المجتمع الإنساني وازدهاره لن يأتي إلا عن طريق ثورة جذرية في التقاليد القديمة للمرأة وفي القيود التي تعوقها عن الانطلاق في المشاركة في بناء المجتمع الإنساني على أسس متينة ثابتة.

برودون Proudhon (١٨٠٩ - ١٨٦٥)

ولد لأبوين فقيرين، وتلقن دروسه الأولى في ظروف قاسية، وفي سن العشرين ساقته الظروف للعمل في مطبعة تعلم في أثناء وجوده بها علم اللاهوت حتى صار عالم لاهوتياً، وتعط كذلك العبرية والنحو المقارن وقام بجولات في ربوع فرنسا أكثر من مرة ذاق فيها مرارة الحرمان والبطالة.

وفي عام ١٨٣٨ أخذ يعد مؤلفاته التي قبلت في الأكاديمية الفرنسية، وأخذ على نفسه عهداً أن يحسن من حال أولئك الذين كان يسميهم "إخوته" وقصد بذلك العمال، كذلك عنى بدراسة الاقتصاد السياسي الذي كان حجر الزاوية في تفكيره مستقبلاً.

وفي عام ١٨٤٠ كان يفكر في تأليف مؤلف ضخم عن مشكلات

الملكية التي كانت في نظره "سرقة" ولولا تدخل وزير العدل في الأمر لاسترسل في الكتابة حول هذا الموضوع. وقد صودرت فعلاً كتاباته ولولا دفاعه عن نفسه هذا الدفاع الذي كان قائماً على الجدل والأفكار المجردة والذي صعب على القضاة فهمه .. ما حكم القضاء ببراءته[1].

وفي ١٤ من فبراير عام ١٩٤٨ أعلن عن أفكاره الاجتماعية والسياسية وقد دعا إلى وجوب عدم تكديس رأس المال الذي يؤدي إلى زيادة الفوارق في الثروة وإلى تحطيم النزعة التي وجدت بين القوة السياسية والسيطرة الاقتصادية، وهاتان النزعتان كفيلتان من وجهة نظر برودون بالقضاء التام على العدالة الاجتماعية والإخاء الإنساني. وتبعاً لهذا تصبح الدولة في نظره وسيلة لتغليب طبقة على طبقة أخرى، أي تحكم أقلية من الأثرياء في الأغلبية من عامة الشعب الفقراء، ويؤدي هذا النظام إلى حرمان الفرد في المجتمع من حقه الطبيعي في الملكية، وهي صورة من السرقة المشروعة وهو يقول:

"الملكية هي السرقة بعينها"

وفي فترة من فترات حياته، اتجه اتجاهاً آخر في مفهوم الملكية، وذلك أنه يتحتم أن يكون لكل فرد أقل قدر ممكن من الممتلكات، لكي يتيح له الاحتفاظ باستقلاله الشخصي وكرامته الأخلاقية والاجتماعية. ويدعو إلى إلغاء الصراع الاقتصادي الذي لا ضابط له بين الأفراد والجماعات والنظم الاجتماعية التي تؤدي إلى سيطرة هؤلاء الإقطاعيين على جمهرة الشعب.

([1]) للمترجم

ويرى برودون أن إحلال نظام تعاوني تبادلي محل المنافسة الاقتصادية التي لا ضابط لها أحسن الوسائل لتنظيم المجتمع، لأن هذا النظام من طابعه أن يزيد من عدد الكفايات وأن يجعل أفراد المجتمع أحسن أخلاقاً وأكبر تقدماً بما يكشف لهم عن الهدف الحقيقي للحياة المشتركة. ويرى أن هذا النظام يؤدي إلى القضاء على الفقر الاجتماعي والتعطل.

ويدخل برودون بدوره في زمرة المتفائلين، ولكنه يختلف تماماً عن "فورييه". فبينما نجد هذا الأخير يهاجم الأسس الأخلاقية للمجتمع نجد برودون يبدي احتراماً بالغاً للفضائل "البورجوازية" أي للزواج والأسرة التي تحكمها سلطة الأب. وهو يبقى دينياً في جوهره ويدافع مثل "دي ميستر" عن الحروب، لأنها في نظره تؤدي دوراً هاماً في تنمية بعض الفضائل الصالحة.

ويمكن أن نضع برودون في مصاف أعداء الثورة. فهو يندد بتركيز السلطات ويفضل نظام اللامركزية الذي يعتمد على وحدات صغيرة تتمتع كل منها بحرية إدارية واسعة وتباشر على أعضائها سلطة أخلاقية حاسمة. وهو يهاجم مبدأ "الجنسيات" الذي شنت باسمه جميع حروب القرن التاسع عشر، وتكهن بأن تكوين الإمبراطوريات الكبرى الذي تهدف إليه السياسة الأوربية لن يحقق السلام، بل على العكس سيكون سبباً في سلسلة من الحروب والمنازعات.

ويرى برودون كذلك أن قانون تقسيم العمل يضع العمال في علاقة ترابط طبيعي بوصفهم شركاء متعاونين في المسئولية، وهذا من شأنه أن

يخفي فيما بينهم المنافسة، وأجرة العمال ليست في الواقع إلا تبادل خدماتهم، ومساواة وظائف الشركاء تُفضى إلى تعادل الطبقات وخصوصاً أنها تسمح للشواذ جسمانياً وعقلياً وخلقياً بالعمل. وأن تنظيم العمل وصف وتحديد وظائف ثم تقسيمها على حسب نظم وأجناس وأنواع، وطالما أن قانون التسلسل هو معيار القدرات وبتعبير آخر مادامت الوظائف الاجتماعية متساوية فيما بينها – فإن إنتاجها يستطيع أن يقيم الأفراد. ولتحديد الأجر يكفي أن نوضح متوسط الوقت الضروري لإنجاز كل إنتاج.

ولكن كارل ماركس عند دراسته لنظرية برودون الاقتصادية، أعلن أنها تقوم على مفهوم خاطئ "لآلية التبادل" وأخذ يفند آراءه الواحد بعد الآخر وانتهى بأن حكم عليه بأنه فيلسوف سطحي ومصلح اجتماعي غبي، وأنه لم يتعمق التعمق الكافي في دراسة تنظيم المجتمعات على مبادئ إذابة الفوارق بين الطبقات. ومع ذلك ورغم الهجمات القاسية التي صبها عليه كارل ماركس، فإنه يمثل أول محاولة لجمع آرائه السياسية والاجتماعية في مذهب موحد يمكن تطبيقه على كثير من النواحي في المجتمع الإنساني.

الباب الثاني

مولد علم الاجتماع الحديث

الفصل الأول

النظم الاجتماعية

أوجست كونت Auguste Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧)

فيلسوف فرنسي ولد في مدينة مونبليه Montpellier وبعد أن أتم دراسته الجامعية، شغل وظيفة معيد في مدرسة الهندسة، ثم عين بعد ذلك سكرتيراً، وأخيراً تعاون مع الفيلسوف سان سيمون في إخراج أبحاثه ومؤلفاته إلى حيز الوجود. ويعد من أوائل المؤسسين لعلم الاجتماع الحديث. وفلسفته في الحياة وفي المجتمع متأثرة بأفكار من سبقوه من فلاسفة القرن الثامن عشر بصفة خاصة وبالتهكم اللاذع لفولتير ضد الميتافيزيقية.

ومن وجهة أخرى شعر أوجست كونت بمدى الاضطراب العام وقلق النفوس الذي ساد بداية عصره، وبرغم اضطراب الأفكار وذبذبة المذاهب الاقتصادية والاجتماعية فإن العلوم والاكتشافات التي بدأت في النصف الأخير من القرن الثامن عشر واصلت تقدمها وتطورها، وقامت بغزوات جديدة في التفكير الإنساني. وقدمت الوسائل الممكنة والطرائق المختلفة للوصول بالإنسانية إلى المكان اللائق بها. وبذلك اختفت تقريباً الفوضى الفكرية والأزمات النفسية في منتصف القرن التاسع عشر. ومن هنا نشأت فلسفة أوجست كونت وهدفها إعادة تنظيم المجتمع. وكان مرجع ذلك

حاجة الناس الملحة إلى هذا التنظيم تجاه التقدم العظيم الذي أحرزته الإنسانية في العلوم.

ولقد تصور أوجست كونت علم الاجتماع على غير ما تصوره الدين والتأملات الفلسفية التي كانت من وجهة نظره ما هي إلا آراء يناقض بعضها البعض، وآراء خداعة مغشوشة، وإذا كان ديكارت قضي على جميع الروابط التي كانت تربط الفلسفة والدين، فإن أوجست كونت أقام سداً منيعاً بين الاجتماع والميتافيزيقيا. ومنذ عهده أصبح الطابع المميز لعلم الاجتماع عدم استخدام الميتافيزيقا. وإن كان هذا لا يمنع أنه قد حدثت محاولات أكثر من مرة من جانب الميتافيزيقيا والدين لتتدخل في إصلاح مبادئ التنظيم الاجتماعي.

ويقوم مذهب أوجست كونت على قائمة من المعارف الإنسانية ونظرية عامة للعلوم. وعدد هذه المعارف الإنسانية من وجهة نظره ست معارف: رياضة وفلك وطبيعة وكيمياء وعلم الأحياء. ويتوج كل هذه العلوم علم جديد أطلق عليه علم الاجتماع. وهو علم يقوم على دراسة المجتمعات من الناحية الموضوعية والطبيعية، وهذا الترتيب كما يقول كونت ليس من وجهة نظر عقلية فقط، بل هو يساير كذلك تاريخ تطور العلوم.

وعلم الاجتماع كما يبسطه كونت له هدف واضح لا لبس فيه ولا غموض وهو دراسة الكائن الاجتماعي من جميع نواحيه، فهو يقول: أن المجتمع يتكون من الأفراد الأحياء الذين يعيشون في فكرة من أتوا من بعدهم. وأن المجتمع مكون من حصيلة "تجربة" ومن مجموعة "معارف" ومن

محتوى هذه المجموعات من المعارف الفكرية والروحية الموضوعية للمجتمع وتربط هذه الفكرة الأجيال الواحد بالآخر. ومهما يكن فإن المجتمع الحي هو الذي يتشكل من الأفراد القابلين للتغير والتطور، لأن المجتمع في طبيعته سريع القابلية للتكيف مع الظواهر الخارجية بأشكالها المتنوعة، وليس هناك كائن آخر في مقدوره أن يحقق مثل هذا التقدم السريع المستمر بفضل تعاقب الأجيال .. غير الكائن الاجتماعي الذي يسود الزمن.

أما من جهة الطريقة التي يتحتم على علم الاجتماع استخدامها فيجب أن تكون قائمة على الملاحظة والاستدلال. وكان هذا الاتجاه مرتبطاً عند أوجست كونت بنظرية عامة للتطور الفلسفي. وتقرر هذه النظرية المعروفة تحت اسم "قانون ثلاث الحالات" أن الأفراد مروا عبر جهودهم المبذولة دائماً من الفهم والتفسير للعالم الذي يحيط بهم بثلاثة اتجاهات متعاقبة:

(١) الحالة الدينية: تقوم هذه الحالة على تفسير مختلف الظواهر عن طريق أسباب أولية مشخصة في آلهة. ففي المنظمات الاجتماعية التي كانت بهذه العقلية، كان الاستعلاء الطبقي للجماعات الكنسية.

(٢) الحالة الميتافيزيقية: حاول الأفراد أن ينتقلوا إلى مفاهيم أقل من المفاهيم الأولى والأسباب التي هي أكثر عمومية (وحدات ميتافيزيقية) حلت محل الأسباب الأولية. وفي حياة الدول، نجد أن العقيدة أكثر استعلاء عن الحقائق التي يتحتم عليها أن تنطوي تحت مبادئ، واضحة؛ مثل فكرة الحرية المطلقة، وفكرة الفضيلة "المتكاملة" الخ.

(٣) الحالة الوضعية: تحتوي هذه الحالة على تفسير الظواهر عن طريق الأسباب الثانية باعتمادها على الملاحظة العلمية.

ويتحتم أن يكون الطابع الوحيد المميز للفلسفة الوضعية هو المطابقة على الحقائق، ويتحتم كذلك أن تكون هذه الفلسفة بعيدة كل البعد عن المذهبين التجريبي والتصوفي ويلزمها أن تبحث عن قوانين الظواهر، أعني العلاقات الدائمة التي بين الظواهر الموضوعية تحت الملاحظة، ويجب أن تم ملاحظة الظواهر بالتشابه في وقت واحد أو بالتعاقب، ثم نربط هذه الظواهر إما بالتشابه أو بالتسلسل، ويجب ألا نضع في اعتبارنا البحث عن الأسباب المطلقة، ولا الطبيعة الجوهرية للأشياء، فخلاصة الفلسفة الوصفية هي أن نضع الشيء النسبي مكان الشيء المطلق.

ويرى كونت أن علم النفس يجب أن يتوقف عن الظهور كعلم، ويجب أن يتقاسمه علم الأحياء وعلم الاجتماع، لأن الإنسان المنعزل ما يقول أوجست .. إنما وهو "تجريد مدرسي" والجنس هو الحقيقة.

وكما تدرس القوى في الطبيعة والكيمياء أولاً بطريقة التعادل وثانياً بطريقة الحركة .. فيجب أن يقوم علم الاجتماع على شيئين هامين:

(١) التعادلية التي تقوم على دراسة الشروط الثابتة لوجود المجتمعات.

(٢) الديناميكية التي تقوم على دراسة قوانين تطور المجتمع.

ويتجه أوجست كونت اتجاه أساتذته وخاصة سان سيمون في أن تطور الإنسانية أدى بالمجتمع إلى التقدم وهو يقول:

إن الفائدة العملية لعلم الاجتماع هى اكتشاف شروط التنظيم الاجتماعي من ناحية التعادل الاجتماعي، ومن ناحية الديناميكية اكتشاف قوانين التقدم، والنظام يؤدي دائماً إلى التقدم، والتقدم والنظام هما شعار السياسة الوضعية.

ومن وجهة نظر كونت، فإن الحب الجامع الذي ينتج عن تعاطف متزايد مستمر، والذي يدفع الإنسان إلى حب أخيه الإنسان، هو دعامة البنيان الاجتماعي كله، وعلى هذه الدعامة ينمو المجتمع ويتطور ويسوده الإخاء وترفرف عليه الرفاهية والسعادة. وستكون الإنسانية، هدف هذا الحب بلا نزاع.

ومع ذلك يرى أوجست كونت أن الكائن الاجتماعي يجب أن يندمج في شخصية متسلطة تسلطاً مباشراً. ويجب أن نستشعر بالسلطة العليا المركزية في كل ميادين الحياة الاجتماعية. وبذلك يعد من أنصار الذين ينادون بالحد من حرية التفكير، ولذلك كان يمقت أشد المقت الاضطرابات والقلاقل التي حدثت نتيجة الثورة سنة ١٨٤٨، ومن أجل هذا فرح وهلل عندما قبض نابليون الثالث على زمام السلطة بيد من حديد وقال: "إن حرية الضمير لا توجد في الرياضيات".

وفي نهاية حياته كتب بكل عناية عن وظيفة المجتمع الموجه فهو يرى: إقامة نوع من الدين مع حب "الإنسانية" التي تعتبر كأنها "الكائن الأعلى". وهو يحاول أن يجمع في هذا الدين كل العبادات الموجودة باختبار مؤسسيها، ورجالها العظام، وعلى ذلك يتكون المجتمع من هيئة كنسية ومن

سلطة عالية دينية وعلمية وسياسية، ويتحتم على هؤلاء جميعاً أن يعملوا من أجل مصير الإنسانية.

وبرغم ما في منهج أوجست كونت من مبادئ، ونظريات تميل إلى الفوضى وعدم الوضوح، فإنه يصف طابع المجتمع المثالي من وجهة نظره بأنه المجتمع القائم "على الحب كمبدأ عام؛ وعلى النظام كقاعدة، وعلى التقدم كهدف"

ستيوارت ميل Stoart Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣)

الفيلسوف والاقتصادي البريطاني، ولد في ٢٠ من مايو عام ١٨٠٦ وتلقى كل تعليمه على يد والده، وقد بدأ وهو في سن الثامنة بدراسة الفلسفة والجبر وغيرهما من العلوم، وبدأ في تعليم الأطفال في أسرته، وكان يقرأ الاقتصاد ويدرسه في سن الثالثة عشرة، وبالرغم من أن طفولته كانت سعيدة فإنه قاسى من عدم التطور الطبيعي الذي يحدث دون ضغط أو قسر.

وذهب إلى فرنسا في مايو عام ١٨٢٠ وظل بها إلى يوليو عام ١٨٢١ حيث كان يقرأ، ويدرس الكيمياء وعلم النبات والمسائل الرياضية العليا، ويدرس الناس والعادات. وفي سن السابعة عشرة عمل بمكتب الاختبار في "أنديا هاوس" (دار الهند) وأصبح مساعداً في عام ١٨٢٨، ومن عام ١٨٣٦ إلى عام ١٨٥٦ وكل إليه قسم العلاقات مع أهالي البلاد الأصلين في شركة الهند الشرقية، وبين عامي ١٨٢٢ و١٨٢٣ أقام بين زملاء قليلين ما أسماه بمجتمع "المنفعة" utilitarisme.

انتهز ميل كل فرصة أتيحت له في الصحف للكشف عن التصرفات غير السليمة في البرلمان وفي المحاكم، كما أنه كان يرسل مقالاته إلى الصف أيضاً متناولاً الموضوعات الفلسفية، ومن أهمها مقالاته باسم "روح العصر" ونشرت مسلسلة في صحيفة "اكزاميز" عام ١٨٣٠ وفي عام ١٨٣٥ أصبح رئيس تحرير صحيفة "لندن ريفيو" التي ضمت في عام ١٨٣٦ إلى صحيفة وستمنستر، وأصبحت تسمى "لندن آند وستمنستر ريفيو" التي ظل ميل رئيس تحرير لها ثم مالكاً حتى عام ١٨٤٠، وفي ذلك العام وما بعده نشر مقالاته في "أدنبره ريفيو" كما كتب أعماله الكبرى أيضاً خلال هذه السنوات في المنطق والاقتصاد السياسي، وكان متأثراً بأوجست كونت، ونيوتن في عام ١٨٤٤ كما نشر كتاباً باسم مقالات عن بعض المسائل التي لم تحل بعد في الاقتصاد السياسي، وفي عام ١٨٤٨ نشر كتابه عن "مبادئ الاقتصاد السياسي" وبدأ دراسة الكتاب الاشتراكيين.

وقد تزوج مسز تايلور عام ١٨٥١ وقال إنها هي التي أوحت إليه بما كتبه عن حقوق المرأة وإنها هي التي أثرت على مثله العليا عن حياة الفرد والمجتمع، كذلك تأثر ميل بتوماس كارليل وستيرلنج، وقد توفيت زوجته بعد سبع سنوات من زواجهما وعاش بعد ذلك معظم ما بقي من حياته في فيللا في سانت فيران بالقرب من أفينيون حيث ماتت زوجته، وأخذ يبحث عن السلوى في الكتابة عن علم الجمال والسياسة. وفي عام ١٨٥٩ كتب عن الحرية، و"آراء في الإصلاح البرلماني" وفي عام ١٨٦١ كتب "دراسات في الحكومة النيابية" و"مذهب النفعية" عام ١٨٦٢ وعام ١٨٦٥ دراسة فلسفة "سير ويليام هاميلتون" و"أوجست كونت والإيجابية".

وبرغم دراساته النظرية فإنه لم يتخل عن السياسة وأيد الشماليين في أثناء الأزمة الأمريكية عام ١٨٦٢، وفي عام ١٨٦٥ انتخب نائباً في البرلمان عن وستمنستر ورفض أن يلجأ إلى الوسائل التي يتبعها الناخبون محاولين جذب الأصوات .. بل أنه بصعوبة وجه خطاباً للناخبين، وبالرغم من ذلك فإنه نجح وأدى دوراً هاماً في مشروعات الإصلاح بين سنتي ١٨٦٦ و١٨٦٧ للقضاء على الفساد واستخدم نفوذه في الدعوة إلى أن الواجب يقضي بتدخل إنجلترا في شئون السياسة الخارجية تأييداً منها لقضية الحرية[١].

ويتخذ "ميل" لفلسفته الطابع العام الذي ساد القرن الثامن عشر وهو طابع التحرر، فهناك حقائق في المجتمع ظهرت تبرر اتخاذ هذا الطابع من جانب بعض المصلحين الاجتماعيين والمفكرين: كالثورة الصناعية وشقاء الطبقات العمالية والزيادة الهائلة في عدد السكان والإمبريالية، والتوسع الاستعماري والاقتصادي، ومحاولات تنظيم العالم العمالي في نقابات الخ.

وقد دفعت هذه الحقائق الجديدة عدداً من المفكرين إلى الاتجاه نحو الطريقة القديمة .. أعني نحو اتخاذ القوة كوسيلة للحصول على بعض المكاسب للمجتمع الإنساني. واتجه البعض الآخر إلى البحث عن إقامة مؤسسات لاسترداد حقوق المجتمع المسلوبة، واتجه فريق آخر من أمثال بلانكي Blanqui وسورل Sorel إلى إقامة تنظيم هجومي بل بالأحرى عسكري تقريباً للحصول على السعادة للطبقات المظلومة، وبذلك اعتنق

---

(١) للمترجم

هؤلاء المفكرون وجهة نظر بعض المؤرخين التي تقول: إن تاريخ الإنسانية ما هو إلا سلسلة من تجارب القوة.

ويضع ستيوارت ميل حرية التفكير فوق كل شيء، فمثله كمثل فورييه Fourier يريد حرية كاملة لأنه كما يقول:

"إلغاء القوة الجسمانية لا يكفي، ولأن تسلط الرأي العام واللوائح الأخلاقية تستعبد حتى الروح"

الشجاعة الأدبية التي تستطيع أن تقاوم التقاليد الموروثة أكثر ندرة في الرجل من الشجاعة الجسمانية، والوسيلة للهروب من خطر ركود المجتمع ومن بلاهته وبلادته هي الحرية، وعلى الأخص حرية التعبير عن الآراء الجديدة والتي هي المصدر الوحيد للتقدم الذي لا ينفد دائماً، لأن الحرية تخلق من مراكز الإصلاح بقدر ما في المجتمع من الشخصيات الحرة. ولأن المجتمع يتجدد ويتطور كلية عن طريق عمل الأفراد الذين يتشكل منهم.

وبرغم الإعجاب الكبير الذي يكنه ستيوارت ميل للفلسفة الوضعية ولأوجست كونت، فإنه ينبذ كلية مفاهيمه الاجتماعية. فهو لا يؤمن بفضائل الأنظمة ذات السلطة حتى التي تمارس عن طريق مجلس أعلى من العلماء والحكماء. أما من ناحية التطور السياسي فلم يعد هناك كما يقول إلا "نظامان يتصارعان من أجل استعلاء كل منهما على الآخر: الديمقراطية والبيروقراطية. والحل الوحيد الممكن اتخاذه اتجاه ذلك هو أن على الديمقراطية أن تستخدم البيروقراطية في كل شيء ولا تستأثر لنفسها إلا بالمراقبة والإشراف"، ويضيف إلى ذلك أن "سلطة مطلقة عادلة في بلد

متمدين إلى حد ما .. أكثر ضرراً أيضاً من قرار ظالم يقضي إلغاء التفكير وقوة الشعب.

ويحاول ستيوارت ميل أن يوائم بين الاقتصاد الحر والمشكلة الاجتماعية. وهو ينهي بحثه بقوله:

"إن قرار هذه المواءمة سوف يتركز على هذا الاعتبار الواحد، أي على معرفة أي النظامين يمكن أن يعطي الحرية الإنسانية والذاتية الإنسانية حداً أقصى لأنه عندما نضمن وسائل الحياة تصبح الرغبة في الحرية أقوى الرغبات عند الإنسان، وبدلاً من أن تفقد من قوتها فإنها تنمو بقدر نمو الاستعدادات الفكرية والأخلاقية".

ولكي يحكم على قيمة التنظيمات المختلفة فإنه يجعل همه البحث عن مقياس غير المقاييس التي استخدمها غيره من قبل، فهو يقترح أن نحكم على حسن أي تنظيم بما يحققه من الفائدة، ومن السعادة المادية ومن الحرية لأكبر عدد ممكن من الأفراد. وقد حكم على مذهبه الذي أطلق عليه "مذهب النفعية" في ذلك الوقت بأنه مذهب مناف للأخلاق.

ويقر ستيوارت ميل، من ناحية أخرى، انتقادات كل من "ريكاردو" و"مالتوس" فهو مثلهما لا يعترف بأن الديناميكية الاقتصادية وخاصة الديناميكية السكانية تؤديان إلى دعم الحرية. وهو يخالفهما في طرق العلاج فلا ينتظر في سلبية وقوع الكوارث التي تحد من عدد السكان بل يدعو إلى تنفيذ نوع من التربية الجنسية التي تؤدي إلى تحديد النسل، وقد حكم الناس على هذا الرأي كذلك بأنه رأى مخالف للأخلاق.

وأخيراً، يعتبر "ميل" أول المنادين بتحرير المرأة من ناحية الحقوق المدنية والحقوق السياسية لأنه كان دائم البحث عن أحسن الوسائل لتنمية الشخصية الإنسانية، وكان أكثر وضوحاً من أوجست كونت في هذه القضية، لأن أوجست كونت اتخذها من الناحية العاطفية أكثر من أي شيء آخر، أما ستيوارت ميل فقد اتخذها من ناحية المبدأ لا أكثر ولا أقل. ومن وجهة نظر ستيوارت ميل فإن العلاقات بين الرجال والنساء في شعب واحد لها أهمية أكثر من العلاقات مع الشعوب الأخرى. وإن قضية تحرير المرأة قضية رئيسية لتقدم الإنسانية، وهي تقف على قدم المساواة مع قضية الطبقات المظلومة، وهو كفورييه **Fourier** تماماً في اعتبار أن المرأة ضحية آثار التنظيمات القديمة والخرافات البدائية التي لا تستند اليوم إلى أي منطق أو أي تفكير سليم.

كارل ماركس Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣)

فيلسوف ألماني ولد في بلدة تريف **Treves** في القطاع الألماني من حوض "الراين"، وليست لدينا معلومات واضحة عن طفولته وحياته الأولى وإن كان مؤكداً أن أمه لم تقم بدور كبير في تعليمه وتثقيفه، ثم أرسله أبوه إلى المدرسة الثانوية فكان موضع الثناء والتقدير من أساتذته بسبب نشاطه وجده وارتفاع مستواه الفكري الذي بدا في مقالاته الأخلاقية والدينية التي كانت تقدم إلى أساتذته، كما كان مبرزاً في الرياضة والدراسات اللاهوتية، وظهر كذلك بذكاء خارق في الآداب والفنون.

وغادر ماركس المدرسة الثانوية وهو في السابعة عشرة حيث التحق

بناء على نصيحة أبيه بكلية الحقوق بجامعة "بون" وقد صمم فيما بينه وبين نفسه على متابعة جميع المحاضرات التي كانت تلقى في ذلك الحين، ومنها محاضرات عن "هرمر" كان يلقيها "شليجل" المعروف، ومحاضرات عن علم الأساطير اليونانية وفي الشعر اللاتيني وفي الفن. واشترك في جميع ألوان النشاط الجامعي، وغرق في الديون حتى أذنيه، ثم بعد ذلك ترك بون والتحق بجامعة برلين حيث تتلمذ في الفقه على يد "سافيني" وفي القانون الجنائي على "جانز"، ثم هجر ماركس دراسته القانونية وكرس نفسه لدراسة الفلسفة ورسم لنفسه خطة تقوم على إعداد نفسه ليكون محاضراً في الفلسفة في إحدى الجامعات، وكان ماركس في ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره.

وقد تعلم اللغة الفرنسية عن طريق قراءة مؤلفات المفكرين الاشتراكيين الباريسيين أمثال "فورييه" و"برودون" الخ وقرأ التاريخ الفرنسي والألماني الحديث، كما قرأ كتاب "الأمير" لمكيافيللي وانكب على قراءة تاريخ الفن القديم والحديث.

وفي عام ١٨٤٣ تزوج ماركس "جنى فون وستفالن" ضد رغبة أكثر عائلتها. وكانت هذه الزوجة تتمتع بخيال عاطفي عميق، وقد كرست وجودها كله لحياته وعمله واندمجت فيه عاطفياً وأخلاقياً، فكان يعتمد عليها اعتماداً كلياً في أوقات الشدة وفي أثناء الكوارث ثم هاجرا معاً إلى باريس حيث يجد فيها ماركس متسعاً لنشر مبادئه وأفكاره. وقد كتب بهذه المناسبة يقول:

"إن الجو هنا خانق لا يحتمل في الواقع. فليس من العسير على المرء أن يتذلل حتى من أجل الحرية. لقد سئمت النفاق والغباء وفظاظة الموظفين الرسميين، وتعبت من طأطأة الرأس وابتكار العبارات التي لا خطر منها ولا ضرر من ورائها. إن ألمانيا لم يعد فيها ما أستطيع أن أفعله. إن المرء لا يستطيع فيها إلا أن يكون غير أمين مع نفسه"

لقد تأثر كارل ماركس بالفلسفة المنطقية للفيلسوف هيجل **Hegel** وبالفلاسفة الإنجليز الكلاسيكيين، ولذلك فقد استند إلى أن التاريخ لا يمكن أن ينشأ عن طريق حوادث استبدادية مستقلة عن إرادة الإنسان، بل هو خاضع لإرادة تحددها دوافع. وتتطور الصور الاجتماعية تبعاً لبعض القوانين، وبالوقوف على حقيقة هذه القوانين، فإن ذلك يعني في الوقت نفسه تلمس هذا التطور والتكهن بالمستقبل وحتى يومنا هذا يعتبر التاريخ جميعه تاريخ صراع الطبقات، فهو يقول:

"الإنسان الحر والرقيق وصاحب المهنة، ومن لا مهنة له، والأمير والعبد ورئيس العمل والعامل، كل هؤلاء بالاختصار ظالمون ومظلومون، أقام كل منهم ضد الآخر قضية لانهاية لها، وقد أعلن هؤلاء فيما بينهم صراعاً مستمراً، صراعاً خفياً تارة ومكشوفاً تارة أخرى، صراعاً ينتهي بانقلاب ثوري للمجتمع كله، أو بتحطيم الطبقتين معا[١]"

وتقترب روحه الفكرية من روح الفلسفة الوضعية، وعلى ذلك فمثله كمثل أوجست كونت في الابتعاد عن إثارة القضايا الميتافيزيقية والاقتصار

---

(١) للمترجم

على دراسة الظواهر الاجتماعية، وهو يقيم دراسة للمجتمع على نظريات اقتصادية، ويعتبر أن هذه النظريات دعامة كل مجتمع إنساني تسود فيه المساواة والإخاء.

وها هي ذي الخصائص الرئيسية لطريقة ماركس و"اجتماعيته":

فهو يقيم مكان نظرية هيجل الجدلية التي تنادي بأن الحقيقة الجديدة نسبية لا تلبث أن تقابل بهجوم من حقيقة مضادة هي "النقيضة" لقضيتها ثم يتبع ذلك أن تدمر كل منهما الأخرى وهكذا دواليك .. فتستمر العملية إلى مالا نهاية بمجموعة من التأثيرات أكثر تعقيداً، حتى تتأثر القضية بنقيضتها في نوع من حرية تبادل الآراء، ومن ردود الفعل ومن الاستدلالات.

إن "الجدلية" عند ماركس لم تعد كما هي عند هيجل نوعاً من المباراة الجدلية اللفظية، لكنها أضحت نوعاً من تحليل وضعي للقوى وخاصة في مواجهة الأفعال المتبادلة.

ويرتب ماركس على هذا التحليل: لماذا وكيف هذه المتنوعات الاجتماعية؟ ويحتضن كل مجتمع كثير من المتناقضات ومن القوى المتنافرة، وكمية هذه المتناقضات لا تحصى ولا تعد، وبعض هذه التناقضات مثل المنافسات الوطنية والدينية أدمت العالم في فترات عدة. ومع ذلك فماركس يعتبر أن أم التناقضات الاجتماعية هو صراع الطبقات وفي كل مجتمع مثل مجتمع العصور القديمة، ومجتمع العصور الوسطى (الإقطاع) أتخذ هذا الصراع صورة تختلف عن الأخرى.

ويرد ماركس على هؤلاء الذين لا يقرون أولوية هذا اللون من ألوان التناقض على غيره بحجة أنه لم يؤد إلى منازعات عنيفة، بأن للمنافسات الوطنية والدينية أخفت حقيقة الصراع الناشب بين الطبقات. وهو يعتبر من وجهة نظره أن هذه الشواغل (المنافسات الوطنية والدينية) ما هي إلا نوع من التصرفات اللاشعورية غالباً.

وقد ذكر ماركس أن تنظيم المجتمع على أسس قوية ودعامات ثابتة ينبغي علينا أن نبحث عنه في الاقتصاد السياسي، والصراع دائماً صدام بين بعض الطبقات التي تحدد معالمها العوامل الاقتصادية. والطبقة تعرف بأنها مجموعة من الأشخاص في المجتمع يحدد حياتهم تمتعهم بوضع اقتصادي مشترك في ذلك المجتمع. أما وضع الفرد الذي يقوم به في عملية الإنتاج الاجتماعي فيعتمد هذا بدوره على طابع القوى الإنتاجية ودرجة نموها.

وقد نتجت عن هذا الصراع بين الطبقات العلاقات التي قامت بين عنصرين أساسيين في الحياة الاجتماعية: القوى الإنتاجية من جهة وعلاقات الإنتاج من جهة أخرى. ويختص العنصر الأول بكل ما يؤدي إلى الإنتاج، ويتضمن العنصر الآخر العلاقات القانونية التي نشأت بين الناس بمناسبة الإنتاج وتوزيع الثروة.

وتتطور القوى الإنتاجية تبعاً لإتقان الطريقة الفنية وتقدم العلوم وبذلك يفسح المجال لإنتاج أكثر باطراد، ولكن علاقات الإنتاج أشد صلابة فهي تقاوم التطور لأنها تخفي في ثناياها مصالح خاصة. وبذلك يتوقف تطور القوى الإنتاجية ومن ثم يكون من الصعوبة بمكان تنمية

الإنتاج، وعلى ذلك ينشب صراع، فتحاول القوى الإنتاجية الحصول بطريق الثورة على تغيير العلاقات الإنتاجية الموجودة لتجعلها تسترد من جديد إمكانياتها الخاصة في تنمية الإنتاج.

ومن جهة أخرى، تؤدي الملكية التي تعوزها وسائل الإنتاج إلى ظهور طبقتين اجتماعيتين تعيش كل منهما في صراع مع الأخرى: البورجوازية والبروليتاريا. والعمل الذي تؤديه هذه الطبقة الأخيرة يقدم فرقاً كبيراً بين ثمن المنتجات وأجورها. ويعتبر هذا الفرق المصدر العام لأرباح الرأسمالية. ويوضح ماركس أن تضخم الفوائد أو الأرباح وحرية المنافسة تؤدي إلى الاحتكار الاقتصادي. وهذا الاحتكار الاقتصادي يزيد بدوره من شدة المفارقات الاقتصادية وتصارع الطبقات. وعلى ذلك فالملكية المحرومة من وسائل الإنتاج تؤدي كذلك إلى تكوين الاحتكارات التي يمكن أن تكفل لنفسها أرباحاً مرتفعة دون تنمية الإنتاج ودون وجود الكفاية الإنتاجية.

وينعكس تأثير هذا على حساب العمال الذين لم يتمكنوا من الحصول على توافق بين القوى الإنتاجية ووسائل الإنتاج إلا بثورة، ويتحتم على هذه الثورة أن تؤدي إلى تغيير الملكية المحرومة من وسائل الإنتاج إلى ملكية جماعية. وسيخلق هذا التغيير توافقاً تاماً بين الإنتاج والاستهلاك، وبذلك يختفي أحد التناقضات في النظام الرأسمالي. ولا يؤدى الاحتكار الصناعي إلى كساد الإنتاج فحسب، بل كذلك إلى تحويل الطبقات المتوسطة إلى بروليتاريا، وعلى ذلك تتسلل البروليتاريا إلى معظم طبقات الشعب.

وقد ينشأ عن عدم اطمئنان العمال على مستقبلهم وعن تهديدهم من

وقت إلى آخر بقذفهم خارج المجتمع، وعن تكتلهم داخل المؤسسات، تضامن وتكاتف قوى فيما بينهم. وبهذا التضامن والتكاتف يتولد فيهم إحساس اجتماعي وإحساس سياسي وهما دعامة التحرر المرتقب للبروليتاريا وللعمل، فالبروليتاريا هي الطبقة الوحيدة الثورية من بين الطبقات الأخرى في المجتمع.

ويتحتم أن يكون هدف البروليتاريا من النشاط السياسي الحصول بالقوة على السلطة السياسية، ثم انتزاع جميع رؤوس الأموال شيئاً فشيئاً من البورجوازية، لكي يتركز بين يدي الدولة كل آلات الإنتاج، ولكي تزداد بأقصى سرعة القوى الإنتاجية.

والثورة التي تعقب الدكتاتورية الرأسمالية يتحتم عليها أن تؤدي إلى الديمقراطية وإلى مجتمع لا طبقي. ويتحتم كذلك أن يصاحب الإنتاج الجماعي للملكية الجماعية واختفاء الدولة. وسيحل محل الدولة بعد اختفائها تنظيم تلقائي. وسيكون هدف الاقتصاد الاشتراكي الجديد التنسيق المبني على العقل للإنتاج والاستهلاك. وبعد أن يتحكم الإنسان في ضرورياته المادية، سيستطيع أن يقيم نفسه بنفسه وسوف يرتفع بميدانه الروحي. وسوف يعمل كذلك على الارتفاع بمستوى طبيعته.

ويمكن أن نقول: أنه منذ القديس أوجستنان **Saint Augustin** لم ينل أي مذهب اجتماعي من الحظوة والتقدير مثل ما ناله مذهب ماركس، فقد أصبح هذا المذهب الاجتماعي الملهم المباشر والمؤثر النافذ لمعظم الحركات السياسية المعاصرة، خصوصاً في القارة القديمة، ولمجتمعات الجنس الأبيض

التي انقسمت فيما بينها إلى اتجاهين، وأصبح كذلك كعقيدة دينية للدول في كثير من الشعوب، وكان هذا بمثابة تحول خطير غير منتظر لمذهب جديد فوجئ العالم به، فقابله الناس في أول الأمر بحذر شديد.

وقد قادت أفكار ماركس رسمياً تنظيم دول كثيرة وقلبت رأساً على عقب البنيان الاجتماعي القديم والأفكار الموروثة القديمة لبعض شعوب آسيا.

هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣)

فيلسوف إنجليزي ولد في دربي وكان والده مدرساً ورفض عرض عمه بإدخاله جامعة كمبردج، وتلقى تعليمه بدلاً من ذلك عن طريق القراءة وخاصة في العلوم الطبيعية، ثم عمل لعدة شهور مدرساً، ثم مهندساً في السكك الحديدية.

وقد أثرت فيه معتقدات والده المنشقة على الدين، وأوحت إليه بروح عدم الانتماء إلى أي دين، وفي عام ١٨٤٢ بدأ يرسل بعض الخطابات إلى نانكو نفورميست (اللامنتمي) وأعيد نشرها في كتيب عام ١٨٤٣ تحت عنوان. المجال السليم للحكومة، قال فيه:

"إن عمل الحكومة هو أن تعمل على تدعيم الحقوق الطبيعية وأنه إذا تجاوز ذلك فإنه يسبب من الضرر أكثر مما يحققه من النفع"

وبعد اتصاله لفترة معينة بصحيفتي "زويست" و"بيلوت" أصبح نائباً لرئيس تحرير الإيكونوميست عام ١٨٤٨، وفي عام ١٨٥١ نشر "ستاتيكا الاجتماعية" التي ضمت معظم آرائه فيما بعد، ونادى بضرورة أقصى حد

من الحرية الاقتصادية والاجتماعية وفي عام ١٨٥٣ ورث هربرت سبنسر عمه واستقال من عمله في صحيفة الإيكونوميست.

وفي عام ١٨٥٥ نشر مبادئ علم النفس، ويعتبر من كبار المفكرين "الجدليين" في آخر العصر الفيكتوري، كما أنه كان من بينهم أكثر من أثير حوله الجدل. وكان من أشد المتحمسين للنظرة العلمية الطبيعية للعالم. ومن أشدهم معاداة للنظرة إلى ما وراء الطبيعة وهو أول من نادي بنظرية "التطور" ولذلك كان أشد دعاة مبدأ الحرية **Laisser Faire** تحمساً مع عدم النزول عنه قيد أنملة، وقد حث على دراسة الظواهر الاجتماعية بطريقة علمية. الشيء الذي قام هو به نفسه. وكان داعية التفاؤل في العصر الفيكتوري، ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بروح التشاؤم التي كانت في ذلك العصر، والتي كانت تخيم عليه بين الحين والحين، ولقد ورد في تعاليمه أن "التطور" سيتلوه التحلل وأن "الفردية" لن تجد نفسها إلا بعد عصر يشهد الاشتراكية والحرب.

نشر فكرته عن التطور قبل دارون وراسل وآلاس. وتختلف فكرة سبنسر عنهما في أنه يرجع إلى وراثة القدرات المكتسبة على حين أن الآخرين يرجعانها إلى الاختيار الطبيعي، ولكنه قبل فيها بعد نظرية التطور على أساس الاختيار الطبيعي ووضع عبارة "البقاء للأصلح" في مبادئ علم الأحياء وإن ظل متمسكاً بأن التغييرات التي تصيب جزءاً من حيوان معين نتيجة لمؤثرات خارجية يمكن أن تورث من يأتون من بعده.

وتقضي نظريته "التطورية" بأن التطور يحدث لكل شيء إلى أن يحدث

نوع من التوازن يليه التحلل ثم التكامل من جديد ثم التوازن فالتحلل إلى ما لا نهاية. وقد طبق هذه النظرية على المجتمع الإنساني من جماعات أشبه بالقطعان، ثم تنقسم ويزداد تقسيمها إلى أن تصل إلى المدنيات المعقدة التي تمثل تطور العقائد والأعمال وفئات المجتمع المختلفة.

وفكرة سبنسر عن المجتمع فكرة "تركيبية" و"موسوعية" لكن الفكرة الأساسية هي نشر "التطورية" في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لأنها تعتبر خلاصة جميع الأفكار الفلسفية في ذلك الوقت[١].

وعمل العلم في نظر سبنسر استخلاص الصورة القطعية الدائمة لعدد من الحقائق المتغيرة. والقوانين القطعية هي قانون الاحتفاظ بالقوة وقانون التطور. وكل طريقة للوجود في نظره، كما في نظره "كونت" عبارة عن تطور لطريقة سابقة وتطور بذور طريقة لاحقة.

ويحتوي قانون التطور على تغيير بطيء لتحرير مجموعة من المواد المتجانسة إلى مواد غير متجانسة، إذن، فهذا القانون عبارة عن تطور الاختلافات المتباينة في جميع الميادين. في الميدان الاجتماعي تبدأ بمجموعات من الناس بأن تكون نوعاً من القبائل يكون أعضاؤها جميعاً على مستوى فكري وتكتيكي واقتصادي واحد. ثم بعد ذلك ينظمون أنفسهم بأنفسهم ويصبحون مجموعات مركبة حيث نلمس فيها شيئاً فشيئاً اختلافاً في تقسيم العمل وفي العلاقات التشريعية بين الأفراد.

---

(١) للمترجم

و"كونت" الذي يؤمن بتوقف الظواهر ينكر إلى حد كبير "الميكانيكية" وينتهي إلى نوع من الحرية على حين أن سبنسر يعتقد أن هذه الحرية مستمرة في التطور. وإذا كانت الحرية تحكم الميكانيكية، فهذا لأنها خارجة منها، وذلك بفضل نوع من السببية الدائمة التي هي التطور نفسه، ولكن التوازن بين وجهة نظر سبنسر ليس بالشيء الدائم أي الذي يمكن أن يستمر فترة طويلة.

ونظرية التطور عند سبنسر تعارض التطور العكسي والتحلل والرجوع إلى اتحاد العناصر المختلفة، والذي يبدو له من وجهة نظره مرادفاً لكلمة انهيار أو شيخوخة. وقد انتقد مسيو لالاند **Lalande** هذه المفاهيم وأشار إلى أن معظم التقدمات الأخلاقية تتم عن طريق تماثل الأفراد وعن طريق مرونة البناء الاجتماعي المتصلب أو هدمه وإعادة تنظيمه من جديد.

وفي السياسة، يعتبر سبنسر من المفكرين المحافظين بصورة تختلف عن كونت، فدور العمل الإداري الفردي بالنسبة له دور لا أهمية له. فتطور الجماعة محدود بعادات لا شعورية راسخة في التركيبات العنصرية الموروثة. والحكم الحقيقي لهذه الجماعات يتمثل في مزاج الشعب نفسه، وعلى ذلك فكل محاولة انعزالية للتغيير – حتى لو كانت هذه المحاولة من جانب دكتاتورية عادلة حكيمة متزنة كما تخيلها أوجست كونت – تبدو للفيلسوف سبنسر محاولة بعيدة عن العقل، وخارقة للصواب تدل على الجهل بميكانيكية المجتمعات وسرعة تطورها التي لا تقف عند حد. فكل شيء جديد ومستحدث لابد أن ينبثق تلقائياً عن المجتمعات على حسب تكوينها وظروفها التي تعيش عليها.

ويحاول سبنسر جهد طاقته أن يستخلص قانوناً عاماً لتطور المجتمعات. فهو يبين أن هناك نموذجين:

١- النموذج العسكري الذي يغلب فيه الإكراه والقوة ويمثل هذا النموذج الإقطاع.

٢- النموذج الصناعي القائم على تقسيم العمل الذي يغلب عليها ظهور العلماء والمهندسين ورجال الصناعة.

وخلاصة القول .. أعتبر سبنسر كأنه مؤسس لوجود حياة المجتمعات بوساطة العلاقات التي يطورها بين مختلف الوظائف الاجتماعية وبين علاقات النمو العضوي للمجتمع، ولكنه يلاحظ أنه ليس في النمو العضوي للحيوان إلا مركز واحد حساس، وهذا المركز الواحد الحساس يتركز فقط في رأس الحيوان. وكل الحيوانات مشتركة في هذه الظاهرة، على حين أنه في الهيكل الاجتماعي للأفراد تتمتع جميع الأعضاء بهذه الظاهرة. ومن هنا يستخلص نتيجة هامة جداً .. هي أنه بينما لا يوجد وجدان اجتماعى مشترك بين الجميع ككل، بل يوجد في الأفراد، فإن نهاية الحياة الاجتماعية في الفرد. وعلى ذلك يقرر سبنسر أنه يتحتم أن يخدم الكل الجزء لا العكس، بمعنى أن على المجموع أن يخدم الفرد وليس الفرد هو الذي يخدم المجموع.

نيتشية Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠)

لم يكن نيتشة اجتماعياً بمعنى الكلمة، ولكن قام بطريقة غير مباشرة بدور هام في التفكير الاجتماعي والسياسي. فقد كان من الأوائل الذين

انفصلوا عن تقليد حب الشعب والمساواة (على الأقل المساواة الروحية التي سادت منذ ظهور المسيحية) فقد راح يدافع عن تنظيم أرستقراطي واعتنق مبدأ التضحية بالمجموع من أجل الأفراد المميزين وهو يقول: إن كل شيء مباح للارستقراطيين الحقيقيين.

وباختصار فإن نيتشة يتكهن بظهور أرستقراطية جديدة ويدعو إلى تحريرها من قيود المسيحية ومن التواضع والشفقة، وسوف تثبت هذه الأرستقراطية الجديدة نمطاً أخلاقياً يهدف إلى اعتبار الشعب وسيلة لتحقيق عظمتها في خدمته "إرادة القوة".

وهو فيلسوف ألماني ولد في ريكن **Roechen** وهي بلدة صغيرة بالقرب من ليبزج كان معظم أفراد عائلته من رجال الدين. ممن شغلوا مناصب دينية كبيرة، وقد توفي أبوه وهو في سن الخامسة. وفي سن الحادية عشرة تقريباً التحق بمدرسة بفورتا **Pforta** ثم غادرها إلى جامعة بون بعد ست سنوات، وفي خلال تلك الفترة، أظهر تفوقاً كبيراً في دراسة اللغويات والآداب الكلاسيكية، وفي العام الذي تخرج فيه من الجامعة، اختير أستاذة لفقه اللغة في جامعة بازل.

وكان مصدر وحى تفكيره الفلسفي شوبنهور **Schopenhawer** وفاجنر **Wagner**، بيد أنه أنقطع عن التدريس في الجامعة، ثم أخذ يطوف بأرجاء إيطاليا وسويسرا. وبعد هذه الرحلات، بدأت فترة أخرى في حياة نيتشة ألا وهي فترة التأليف والكتابة. وكان كل كتاب يؤلفه يعد نصراً على حالة العمى التي أصيب بها والصداع وغيرهما من الأمراض الكثيرة التي

أصابته، وتنتمي أعماله الكبرى إلى هذه الفترة، ولم يشتهر حينئذ إلا عندما كان جورج براندیس يحاضر عن نيتشة في جامعة كوبنهاجن عام ١٨٨٨. وبعد عشر سنوات أصبحت شهرة نيتشة تطبق الآفاق. وفي يناير عام ١٨٨٩ أصيب بانهيار عصبي وجسماني وظل في شبه حالة جنونية إلى أن مات.

ويرى نتيشة أن الداعين للنظم الاشتراكية مخطئون في فهم ما يجب أن يكون عليه مفهوم البنيان الاجتماعي، ومخطئون كذلك حينها ادعوا أنهم وضعوا أنفسهم موضع الطبقة الدنيا وأحسوا بما هم فيه من آلام. لأن الآلام لا تزيد إلا كلما ارتفع المستوى الثقافي، والطبقة الدنيا هي طبقة أقل إحساساً بالآلام. ويرى نينشة أن العدالة الحق هي أن تمنح الطبقة الحاكمة قدراً من المساواة. أما أن تطالب هي بالمساواة فهذا حقد وطمع، والواقع أن هذه تعتبر دعوة منه إلى الاعتراف بتقسيم النصيب في الميدان الاقتصادي والثقافي والاجتماعي.

ويرى نيتشه أن تحقيق حياة أفضل لأكبر عدد ممكن من الناس تقضي على التربة التي نبتت فيها العقول الكبيرة والأفراد العظام. وحجته في ذلك أن الإنسانية إذا وصلت إلى حد الاكتفاء بين أفراد المجتمع فلن نتقدم بعد ذلك خطوة واحدة. وهو ينكر على الطبقة الدنيا مهما أخذت من أسباب التقدم والحضارة أن تكون قادرة بأية حال على خلق الأفراد العظام، لأن هؤلاء يخلقون تلقائياً. أما الطبقة العليا في التي يجب أن تحكم وتقود وتوجه الشعب كما تريد.

والغريب في الأمر، أن نجد نيتشة يناقض نفسه بنفسه حيث يقول:

"إن التفرقة بين الحكومة والشعب، كما لو كانا يمثلان مجالين منفصلين من مجالات القوى يتعامل أحدهما وهو الأقوى والأرفع ويتحد مع الآخر وهو الأضعف والأحط، هذه التفرقة جزء من فهم سياسي موروث لا يزال يمثل النظرة التاريخية الثابتة للعلاقات بين القوى في معظم الدول تمثيلاً صادقاً، وعلى العكس من ذلك، ينبغي أن يعلم الناس الآن، وفقاً لمبدأ يصدر عن الذهن وحده، ولا يزال عليه أن يشق طريقه في التاريخ، أن الحكومة ليست إلا أداة الشعب، وليست شيئاً عالياً مبجلاً بالقياس إلى شيء أدنى قد اعتاد الضعة والانحطاط"

إذن فنيتشة كان يؤمن بتذويب التفرقة بين الحكومة والشعب وليست هناك طبقة "عليا" وطبقة دنيا.

ويبني نيتشة فكرته التي يؤمن بها وهي فكرة التفاوت الطبيعي بين الأفراد، على أن الطبيعة لا تعرف إلا التفاوت في الرتبة، وكل محاولة لجعل الناس متساوين محاولة مضادة للطبيعة، ويحمل نيتشة على كل مفكر حاول مناقشة هذه الفكرة لأنها من البديهيات التي لا تحتمل النقاش. ويستطرد نيتشة في هذه النقطة بالذات فيقول إن مراتب الناس الحالية في المجتمع هي مراتبهم الطبيعية نفسها: فالثروة في رأيه مصدر لعراقة الأصل: "إن الثروة تولد بالضرورة أرستقراطية في الجنس، إذ تمكن من اختيار أجمل النساء، ومن جلب خير المربين، وهي تضفي على الرجل صفاء، وتمنحه الوقت الذي يتعهد فيه جسمه بالرعاية، وأهم من ذلك كله، تعفيه من العمل

البدني الثقيل. وفي موضع آخر يقول:

"إن كل ارتقاء بالنوع الإنساني كان حتى اليوم من عمل مجتمع أرستقراطي، وسيكون كذلك دائماً: أعني مجتمعاً يؤمن بالتفاوت الكبير في المراتب بين الإنسان والإنسان وتباين قيمة كل منهما، ويرى الرق بأي معنى من معانيه، ضرورة محتومة "

وفي موضع آخر نرى نيتشة يحمل حملة شعواء على أغنياء عصره وخاصة أصحاب الأعمال منهم. ويؤكد أنهم ليسوا أصلح الناس إطلاقاً حيث يقول: "لقد كانت العلاقة بين الجنود وقوادهم دائماً أرفع بكثير من علاقة العمال بأصحاب العمل، وهنا يتحكم قانون الحاجة فحسب: أي أن المرء يريد أن يعيش وعليه أن يبيع نفسه غير أنه يحتقر ذلك الذي يستغل هذه الحاجة ويشتري منه العمل، ومما يسترعي الانتباه أن الخضوع لأشخاص أقوياء يثيرون الخوف والرعب، أي الخضوع لطغاة أو قواد جيوش لا يكون إلا بقدر الخضوع لأشخاص غير معروفين ولأهمية لهم كالحال في كل رجال الصناعة الكبار: فالعامل لا يرى في صاحب العمل عادة إلا شخصاً تافهاً يتصف بالخديعة والجشع. ومن الجائز أن كل رجال الصناعة وكبار رجال الأعمال في التجارة يفتقرون تماماً حتى الآن إلى كل صفات "العنصر الرفيع" وسماته التي بدونها لا تكون للشخصية قيمة، ولو كان لهم ذلك السمو الذي تضفيه عراقة الأصل على نظراتهم ومحياهم. فربما لم تكن تقوم لاشتراكية الدهماء قائمة، وذلك لأن الدهماء يمكنهم أن يتحملوا كل أنواع العبودية بشرط أن يثبت من يعلو عليهم أنه أرفع منهم بحق وأنه "ولد" لكي يأمر وذلك عن طريق صورته الرفيعة، غير أن الافتقار

إلى الصورة الرفيعة والتفاهة الوضيعة التي يتصف بها أصحاب المصانع بأيديهم الحوراء السمينة تثير في ذهن العمال تلك الفكرة، وأعني بها أن الاتفاق والحظ وحدهما هما اللذان رفعا الواحد فوق الأخر فتكون النتيجة أن يقول العامل لنفسه حسناً فلنجرب نحن الاتفاق والحظ، ولنلق نحن بالنرد، وهنا تبدأ الاشتراكية[1]"

ولنيتشة رأي خاص في المرأة باعتبار أنها تمثل دعامة من دعامات المجتمع الإنساني، فهو يرى أن طبيعة المرأة ذاتها عقبة ضد تحريرها إذ أنها محافظة بطبيعتها تحترم السلطة السائدة والأفكار التي يقرها المجتمع. وهو يؤكد أن "الروح الحرة لا تعيش مع المرأة"، والرجل من جهة نظره أعمق بكثير من المرأة في روحه ورغباته وآماله في الحياة. ولذلك فهو ينظر إلى المرأة على أنها متاع للحياة، وأن دورها في المجتمع هو الدور الذي يجب أن تقوم به داخل منزلها، ويقصر دور المرأة على إنجاب الأطفال ورعاية الزوج وإذابة شخصيتها فيه.

---

(1) للمترجم

الفصل الثاني

المدارس الاجتماعية

يعتبر سبنسر آخر من تحدث من أعلام الفكر الاجتماعي عن النظم الاجتماعية، ونعني بذلك النظم التي حاولت جهد طاقتها أن تدمج بعض الظواهر الاجتماعية في نظرة عامة للعالم. ومنذ عهد سبنسر، شاهدنا ظهور عدد من المدارس لها طابع مشترك. وهذا الطابع المشترك بين كل مدرسة وأخرى يمثل إحدى وجهات الحياة الاجتماعية التي أطلق عليها أخيراً، اجتماعية الدوافع"

ونظريات الدوافع التي أطلق عليها سوروكان Sorokin اسم "نظريات من طرف واحد" تشترك جميعها في رأي واحد؛ فهي تحدد موقفها من وجهة نظر واحدة ميكانيكية، والمقصود بها تفسير تغير المجتمعات. وهذه التغيرات واضحة بينة ومتعددة، ولكن أسبابها متشابكة معقدة، ومن الصعب تلمسها الوقوف على أساليبها، ولكي نصل إلى تفهم أسباب هذه التغيرات وما يحيط بها من تعقيدات، يجب علينا تحليل حقائق المجتمع وتفسيرها.

وقد اهتم واضعو هذه النظريات اهتماماً كبيراً بدراسة تشعب الدوافع التي تؤدي إلى التغييرات الاجتماعية وتهيئتها. وتنصب المناقشة في هذا الموضوع على أهمية الأعمال الخاصة لهذه المجتمعات وحدودها، وعلى

معاييرها إذا جاز القول. والنقط المشتركة بين هذه النظريات بعضها وبعض هي:

(١) أن تبحث هذه النظريات عن دافع هام.

(٢) أنها بوجه عام، توافق بكل صعوبة على أن دور كل من هذه الدوافع خاضع بنفسه لبعض التغييرات والتقلبات. والدافع القطعي اليوم يمكن أن يؤدي دوراً ثانوياً في الغد تبعاً لبعض الظروف أو العوامل، وهذا لا يمنع قطعاً من أن يسترد دوره القطعي بعد اختفاء طال أو قصر نتيجة لظروف جديدة.

المدرسة النفسية

ويمثل هذه المدرسة حق التمثيل جابربيل تارد Gabriel Tarde (١٨٤٣ – ١٩٠٤) وهو يعلن تفوق الدراسة النفسية على الدراسة البيولوجية. وتفسر التطورات العقلية الفردية المتكررة أهمية الظواهر الاجتماعية.

وهناك حقيقتان من الأهمية بمكان: الأولى الاختراع أو التجديد، والأخرى المحاكاة أو التقليد. فالحقيقة الأولى ظاهرة فردية، ومن خصائصها الخلق، وإنشاء الطرائق الفنية، وكذلك التنظيمات الجديدة، أما الحقيقة الأخرى فمن خصائصها تعميم هذه المستحدثات ومحاكاتها ونشرها.

ويمكن تعريف المجتمع بأنه مجموعة من الأفراد يقلد بعضهم البعض الآخر، ويقول جابربيل تارد: إن هناك صورتين رئيسيتين للتقليد هما: "تقليد التقاليد" التي تنتقل من جيل إلى جيل آخر، والأخرى بين أفراد

الجيل الواحد نفسه وهى "تقليد العادة" وعلى أية حال فإن التقليد بوجه عام وبصورتيه السابقتين ينتقل عادة من الأعلى إلى الأسفل، ونعني بذلك أننا نقلد تلقائيًا الأشخاص أو المجتمعات التي لها في نظرنا كيان مرموق وسلطة قوية. ويلاحظ جابرييل تارد أن للتقليد طريقتين: الطريقة الأولى تنحصر في تقليد "النموذج"، أما الأخرى ففي تبني "النموذج" المضاد (التقليد – المضاد).

ويشبه جابرييل حياة المجتمعات ببحيرة تعبرها سلسلة من الأمواج ذهابًا وجيئة. وغالبًا ما تصطدم هذه الأمواج بعضها ببعض. وينتج عن ذلك، التحامات أو مصادمات أو مصالحات.

والنفسية الاجتماعية – من وجهة نظر جابرييل تارد نفسية وجدانية. وينبغي عليها والحال هذه أن تبحث عن تعاريف للحالات المختلفة التي عن طريقها يؤثر كل مجتمع في الآخر، ويحمل كل منهما طابع الآخر. وهذه الظاهرة بالضرورة ظاهرة نفسية، وتحتوي على أطوار ومواقف وتطورات مميزة مثل المعارضة والنفوذ والإلهام والبرهنة والسلطة.

والنقد الذي وجه إلى جابرييل تارد أنه أطلق العنان إلى أقصى حد لفكرة التقليد، والحقيقة أنها لم تكن واضحة تمام الوضوح، وأنه طبقها على جميع الظواهر المتشابهة.

واحتلت دراسة الظواهر النفسية المقام الأول عند علماء اجتماعيين آخرين أمثال فاكسفيلرWaxuveillerووستر مارك Westermark وتعزي المكانة الأولى لتفسير الظواهر الاجتماعية من وجهة نظرهما إلى الغرائز

والميول أو الاستعدادات. وقد سار على هذا المنوال كثير من علماء الاجتماع الأمريكيين أمثال جيد ينجز Giddings وكولي Coaley وسمول Small وعلى الأخص ماكدوجالMac Dougall وهذا الأخير في دراسته للنفسية الاجتماعية، يبدأ بسيكولوجية السلوك وهي طريقة مأخوذة عن المفكرين الإنجليز، ومن ثم يحاول أن يلاحظ بدقة "محاكاة" ردود الفعل النوعية بقصد أشياء محدودة.

والشيء الذي يثير الانتباه هو دراسة الجماهير. فجميع المفكرين الذين أتينا على ذكرهم آنفًا متفقون على أن أي جمهور من الناس ليس هو حصيلة أعضائه الذي يتشكل منه، بل إنه نوع من جوهر سيكولوجي متميز عن السيكولوجية الفردية. وقد قامت هذه الدراسات أولاً على التظاهرات المريضة للجمهور: العنف وحمامات الدم والسلب، والنهب، والعصيان الخ. ويتمخض عن ذلك نتائج كلها تشاؤم تجاه الجماهير التي تبدو وكأنها جماهير عشوائية أو جماهير عنيفة أو جماهير إجرامية. وهذا يعتبر حكمًا جزئيًا من هذه الوجهة، لأن هناك آلافًا من الجماهير الهادئة الوادعة".

ويمكن أن يدرج من بين المدارس النفسية، المدارس التي اهتمت بنفسية الشعوب. مثل المدارس الألمانية لهربارتHerbart، ولازاروس Lazarus، وستنتهالSteinthal.

ونضيف إلى هذه المدارس المحاولة التي أجريت في هذا الميدان من جانب جوستاف ليبون GustaveLebon وفويه Fouilleé وكيسرلنج

Keyserling وايلي فور **Elie Faure** ومادرياجا **Madriaga** ... الخ.

وقد أسدت مدارس التحليل النفسي لفرويد**Freud** ويانج **Young** وادلر**Adler** خدمات عظيمة ومساعدات كبيرة لعلم الاجتماع النفسي. فقد حددت عددًا معينًا من الملاحظات النفسية، وبصفة عامة لا شعورية ونموذجية. وتأتي هذه الملاحظات في أغلب الأحيان من مواقف اجتماعية وهي توضح الانعكاسات في حياة الإنسان الداخلية، والمصادمات التي تنشأ عن المضايقات الاجتماعية والأحداث التي تظهر في صورة احتجاجات علنية أو مظاهرات. وتعبر الانعكاسات في حياة الإنسان الداخلية عن مدى المنافسة بين جيل وجيل آخر. فمركب النقص، وامتداد التعويض مظهران أساسيان من مظاهر فوارق الطبقات الاجتماعية التي نعني بها التسلسل الطبقي الذي يبدأ من طبقة النبلاء إلى طبقة الإداريين إلى طبقة الشعب إلى طبقة المهندسين.

ويفسر الشعور بالذنب عددًا من الاتجاهات ومن ردود الفعل. وقد يتجه هذا الشعور من فرد من الأفراد إلى صورة التخريب والدمار في ذاته لكل شيء. وقد يتحول هذا الاتجاه في فرد آخر إلى منافسات، وإلى أحقاد وبغضاء وإلى خوف وإلى اضطهادات.

وقد نلاحظ الأهمية الضخمة لهذه النماذج في الحياة الاجتماعية وفي نضج المذاهب الدينية والسياسية. ويوضح الشعور بالذنب مدى عمق المبادئ الأخلاقية المتأصلة فينا وهي متمثلة دائمًا في فكرة الإثم والخطأ والعزاء والاستشهاد والتكفير والتوبة والعقاب. وتقوم كل هذه الأمور بدور

هام في الحياة السياسية والاجتماعية، ويمكن القول بأن طابع كل بنيان اجتماعي هو إثارة بعض مركبات النقص. وتعبر مركبات النقص هذه عن القلب والاضطرابات والمتناقضات، والعقبات التي تتمخض عن المنظمات والمعتقدات الجامدة ومصادماتها، وتعتبر الحوادث التاريخية مثل الحروب والثورات والأزمات الخ عن طريق الآلام التي تسببها خالقة لمركبات النقص في المجتمع التي توحي بعد ذلك بردود الفعل والاتجاهات المميزة لأي جيل.

المدرسة الميكانيكية والبيولوجية

يمكن أن يتجمع تحت هذا العنوان مدارس كثيرة متنوعة. ومن هذه المدارس تنطلق عدة وجهات نظر مختلفة لا لشيء إلا لكي تصل إلى نتائج خالية من كل وجهة نظر "غائية" ومن كل اعتقاد في أية نتيجة حاسمة تؤدي إلى تطور الإنسانية. وتثبت وجهات نظر هذه المدارس عن طريق العلوم الطبيعية والبيولوجية ما عرف عن ابن خلدون وهوبز Hobbes من قدرية متشائمة مستسلمة، وما عرف هن هوبز عن تشيعه في الفلسفة لمذهب المادية وفي الأخلاق لمذهب النفعية، وفي السياسة لمذهب الاستبدادية.

وقد تشكلت أول مجموعة من هذه المدارس عن طريق هؤلاء الذين ينكرون كل اتجاه صادر عن العناية الإلهية يقوم الإنسانية نحو تقدم وإصلاح متواصلين. ونلاحظ أن أصحاب هذه المدارس يتخذون موقفًا متميزًا عن موقف مفكري القرن السابع عشر وخاصة ديكارت وسبينوزاوجروتيس Grotius، وماليبرانش Malebranche وليبنز Leibniz حتى بيل Bayle وكل هؤلاء أعداء لفكرة الغائية ومذهبها، ولتغلغل

الأخلاقية في كل مذهب.

وقد بدأ الاقتصاديون الأوائل بأن كانوا علماء بيولوجيين مثل كسناي Quesnay، أو فلاسفة مثل آدم سميث. أما ماركس وبارتو Pareto فقد بدأ بدراسة الاقتصاد أولاً ثم انتقلا إلى دراسة الاجتماع ثم أدمجا الاثنين معًا.

ويعتبر بارتو Parero، مثله في ذلك مثل "فالراس" Walras "وكورنو" Cournot أحد مؤسسي الاقتصاد الرياضي، فقد حاول أن ينقل إلى علم الاجتماع طرائق التحليل الرياضي. ويمكن القول بأنه حتى عهد بارتو، كان عند جميع علماء الاجتماع موقف تصوفي تقريبًا يكاد يكون غير ملموس. ويهدف هؤلاء جميعًا إلى اتجاه سياسي، وهدف مشترك نحو مستقبل الإنسانية. ومنذ عصر الحضارة، وجميع المفكرين يعتقدون تطورًا حتميًا، فالبعض منهم ركز دراسته وأفكاره على الأضواء المتزايدة التي تشعها الحضارة على الإنسانية، والبعض الآخر ركز على دراسة نظريات التقدم.

والواقع أن علم الاجتماع الكلاسيكي كان لا يهتم بتاتًا بالطريقة القصصية التي درج عليها المؤرخون. فكان هؤلاء يغتبطون ويسرون من سرد الحوادث الكثيرة المثيرة ذات الطابع التراجيدي والمسرحي.

وكانوا يفضلون غالبًا سرد قصص الانقلابات والمصادمات العنيفة، ولكن علماء الاجتماع اعتبروا أن هذه الحوادث ما هي إلا سلسلة من الحوادث المسرحية التي تتعاقب الواحدة بعد الأخرى، ولكنها لا تعتبر مادة خصبة لدراسة أي مجتمع من المجتمعات، ولا نواة تقوم عليها دراسة

اجتماعية علمية. والحقائق التاريخية التي تفيد علماء الاجتماع في دراستهم للمجتمع الإنساني هي التغيرات التي حدثت تجاه تشكيل الأنظمة الاجتماعية، وتجاه طريقة الحياة والمعارف والمعتقدات والأنظمة السياسية. وبذلك يكون الغرض من دراسة المجتمعات، إنما هو محاولة لاستخلاص معنى هذه التغيرات. ولا يكفي من هذه الدراسة اكتشاف المعنى التام للتطور الاجتماعي، بل يجب بجانب ذلك البحث في التاريخ عن أدلة وبراهين تؤدي هذا التطور، وهذا التغير.

وهناك اتجاه في نظرية "الدوافع"، فكل نظرية من هذه النظريات تحاول أن تغلب شأن "دافعها" ثم تبادر بعمل قائمة من الحقائق، لتثبت نظريتها، ولكن بارتو لم يتبع هذا الاتجاه، بل يحاول أن يثبت أن كل مجتمع عبارة عن جهاز من الموازنات بين قوى مختلفة. وقد يكتب البقاء لأي مجتمع طالما أن العلاقات بين هذه القوى تؤكد تماسكه المتواصل.

وقد حاول بارتو من جانبه تحليل هذه القوى، فذكر أن بعض هذه القوى اقتصادية، ولهذا فهي تخرج عن إطار علم الاجتماع، ولكي يبحث عن أهم القوى الأخرى، فإنه يحاول جاهدًا أن يكشف عن عدد معين من البقايا الثابتة للقوى تبعًا لنوع ظاهراتها، ويعتمد تطور المجتمعات على مقدار هذه القوى المختلفة، ولكن قد يتنوع هذا المقدار نتيجة لظهور صور جديدة من التوازن على غير انتظار، وبذلك لا يسهل الكون بما سيكون عليه التطور الاجتماعي.

وقد أكثر بارتو من التأملات المتشائمة التي جلبها عليه تفكيره

المتناقض ليزيد من أهمية اختلاف وجهات نظره تجاه المجتمع مع المذاهب الكلاسيكية.

ويعلن على الملأ أمام الذين يعتقدون التقدم الثابت والمتواصل للديموقراطية أن حكم الأرستقراطيات حتى العنيفة منها قد دام بعض الوقت. وأما بالنسبة لهؤلاء الذين يعتقدون التقدم الأخلاقي، فهو يحاول أن يبين عن طريق جمع بعض الحقائق المتناقضة، أن الخرافات ما زالت جزءاً من معتقدات الإنسان، لأن الإنسان في حاجة إلى أن يشعر بأنه مكبل في أغلال عدد من المعتقدات، حتى لو كانت غير مطابقة للعقل.

وبالرغم من الطابع "الميكانيكي" لمفاهيمه الاجتماعية، فإن بارتو يعلق أهمية كبيرة على الاختلافات العنصرية للأفراد التي ينتج عنها ظواهر تدرج الطبقات، وعدم المساواة الاجتماعية. ويتضمن هذا التدرج ظاهرة "دورة النخبة الممتازة" أعني التنقل المتواصل للأفراد الذين هم أحسن موهبة من الطبقات السفلى نحو الطبقات العليا؛ وهذا التنقل قائم على "الإخصاب" المتميز. والطريقة التي تنتج عنها دورة "النخبة الممتازة" والتي تعتبر إحدى الخصائص التي تميز نماذج المجتمعات.

وقد حلل م. جيني M. Gini النتائج الشديدة التنوع لتذبذب التوازن الاجتماعي وبخاصة في ميدان الاقتصاد. وأوضح أن بعض هذه التذبذات ليس لها إلا نتائج وقتية أو محدودة جدًا، أما البعض الآخر منها، فإنها تحدث تغييرات جذرية في البنيان الاجتماعي، وهناك تذبذات أخرى تحدث تغييرات كلية ينتج عنها تنظيم جديد من أساسه للمجتمع وللعلاقات

الاجتماعية.

مذاهب الجنس والاختيار

يرى أصحاب هذه المذاهب أن الاختلافات في الحضارة وفي القوى لبعض المجتمعات تتوقف على المواهب الفطرية لكل جنس. ويترتب على هذه المواهب أن كل جنس معد سلفًا ليحتل مكانته التي لابد أن يصل إليها بالضرورة الحتمية.

ونلمس الإيمان بهذه النظرية والاعتقاد فيها في كل المجتمعات القديمة تقريبًا.

فمثلاً في مجتمع القبيلة يعتقد جميع أفرادها أنهم مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بروابط الدم. وهم يعتبرون أنفسهم من سلالة جد حاكم أو بطل عظيم. أو سلالة لإله، أو سلالة لحيوان، توتيميكTotémique (وهذا الحيوان هو الذي كانت تعتبره بعض القبائل البدائية أنه جد أو إله لها). وكانت مثل هذه القبائل تحتقر القبائل الأخرى وتنظر إليها على أنها قبائل دنسة غير طاهرة، وزنديقة، ووضيعة.

ولكن بمجرد أن اتسع أفق العالم، وانتقل من مجتمع ضيق الحدود ومن قبيلة تنتسب إلى جد حاكم أو بطل عظيم، ومن مجتمع النبلاء إلى شعب كثير العدد، اصطدم أصحاب هذه النظريات بالتمايز بين اللغة والدين والحضارة والجنس في مجتمع واحد أو في شعب واحد. ولقد حدث هذا الأمر في التمايز في الجنس بين اليونانيين والبربر. أما الصينيون، فقد ظلوا على ولائهم على هذه الأسطورة واستمروا يطلقون على أنفسهم أنهم من

"أبناء الهون" أو من سلالة "مائة العائلة".

وفي أثناء القرن التاسع عشر كانت الظروف التاريخية مهيأة لتوحي بمذهب تسلسل الأجناس وحتى ذلك الوقت كان العالم مقسمًا إلى كثير من الحضارات الكبيرة ذات وسائل الإنتاج المتقاربة، وكانت كل منها تفاخر الأخرى بعلو شأنها في الميدان الديني والأخلاقي والثقافي. فمثلاً، الصين واليابان والعالم المسيحي والعالم الإسلامي كان ينظر كل منهم إلى الآخر على أنه عالم من البربر ومن الزنادقة.

ولقد شاهد القرن التاسع عشر الحضارة الأوربية تخطو خطوات سريعة نحو التقدم، على حين كان معاصر الملك لويس الرابع عشر يتحدثون عن ملك الأتراك بأنه "أعظم ملك في العالم" أما بالنسبة لوجهة نظر المعاصر لعام ١٨٦٠، فقد أطلق على الإمبراطورية التركية اسم "الرجل المريض" وكانت الهند في القرن التاسع عشر مستعمرة، والصين دولة هرمة واليابان مملكة هزيلة. وكانت معظم الحضارات التي تفاخر بنفسها تحني الرأس أمام الحضارة الأوربية.

وقد تبلورت هذه الظاهرة وانعكست آثارها في شكل مذاهب، فقد نشأ عن ذلك نظرية جوبينو Gobineau التي تتحدث عن عدم المساواة بين الأجناس البشرية. فالعامل الأساسي عند جوبينو لتقدم المجتمع أو تخلفه هو العامل العنصري، فعندما يتخلف أو يتدهور يرجع ذلك إلى أن تكوينه العنصري تغير نتيجة اندماج عنصرين معًا في شعب واحد. وهو يؤكد أن هناك أجناسًا "رفيعة" وأجناسًا "وضيعة" وأن معظم الأجناس غير

قادرة أبدًا على أن تتطور وتتقدم نحو سلم الحضارة الإنسانية، وحجته في ذلك أن بعض الشعوب التي كانت تعيش في بيئة طبيعية مواتية ظلت على حالتها البدائية. وهو يعلن أن الأجناس الثلاثة (الأبيض والأصفر والأسود) لكل منها أصل يختلف عن الآخر. ومن هذا الاختلاف، تنتج خصائص نفسية دائمة البقاء لا يغير منها غير اختلاط الأجناس. وهو لا يؤيد هذا الاختلاط، لأنه من وجهة نظره وخاصة من الجنس الأبيض يهدد الطابع الأخلاقي والفردي للجنس البشري بالانهيار والتخلف.

وكانت نظريات جوبينو نقطة بدء لمبالغات شديدة حتى انتقلت من مرتبة كونها نظرية إلى مذهب سياسي مما أدى إلى انتشار الاضطرابات والثورات الدموية في العالم. وقد تكهن فاشر دي لابوج Vacher de Lapouge تلميذ جوبينو في عام ١٩٠٠ بأنه بعد بضع عشر سنوات، سيقتتل الناس فيما بينهم بالملايين من أجل اختلاف مقاييس مراتبهم.

وقد لاحظ بعض المفكرين أن تلك علامة محققة تدل على تمايز الأجناس. وقد انقسم الناس من وجهة نظرهم إلى نوعين: نوع تستطيل عنده الجمجمة (الطول أكبر من العرض) والنوع الآخر تضيق عنده الجمجمة (العرض أكبر من الطول). وهم يعتقدون أن استطالة الجمجمة تدل على ما لصاحبها من مكانة كبيرة، واستمر هذا الاعتقاد ساريًا إلى أن اكتشف وجوده عند الجنس الأسود.

ومن ثم ظهر على مسرح الأجناس عدد معين من نظريات الاختيار، وكانت هذه النظريات جميعها تعلق أهمية كبيرة على العامل الوراثي نتيجة

لتأثرها بمذهب دارون Darwin وكان لابوج Laqouge تلميذ جوبينو يلقي المسئولية على المبادئ الأخلاقية التي تفسح الطريق في المجتمع الحديث أمام بقاء الضعفاء. وبعث الوضعاء. وقد يتمخض عن الاختيار الاجتماعي الناقص انحدار المجتمع وانحطاطه.

وعلى العكس فإن أتو آمون Otto Ammon الذي ينطلق من وجهة النظر هذه نفسها على منوال بيرسون Pearson ينتهي إلى نظرية متفائلة للتدرج الاجتماعي. فهو يقول إن جميع الأنظمة منذ الطفولة والمدرسة تقوم بوظيفتها كأنها حواجز لتقف سدًا منيعًا أمام غير القادرين، ولتفسح الطريق أمام ذوي الاستعدادات ليتعلموا وتقوم بتوزيع أعضاء المجتمع على حسب الكيف.

ولكن المفكر الإنجليزي م. سوروكانSorokin أوضح هذه النقطة نفسها في مؤلفه التحرك الاجتماعي Social Mobility، وأكد أنه إذا كان الأمر كذلك فيجب على المؤسسات أن تقوم بهذا الدور، لأن أي إيمان كلي في فضائل الوراثة يتعارض بشدة مع هذه الصورة من الاختيار لذوي الاستعدادات في المجتمع، ومن أجل هذا، فإن نظام الطوائف الذي هو بمثابة المذهب الاجتماعي القائم على الاعتقاد في الوراثة أضحى عاملاً لا أهمية له.

وتتعارض نظريات الأجناس مع الإنسانية والمثالية في المجتمع، ومعنى هذا أن هذه النظريات تؤيد قضايا هيردر في خاصية عدم انتقال "الأرواح" والثقافات الشعبية. وتبعًا لوجهات نظر هذه القضايا فإن الإنسانية ستظل

محبوسة في سلسلة من القدريات التي ينتج عنها اختيار إجباري، إما استمرار وجود عدم المساواة والفوارق عن طريق الخوف والرعب من اندماج الأجناس بعضها في بعض، وزيادة خطورتها على المجتمع الإنساني، وإما قبول اندماج الأجناس والانغماس في تدهور وانحطاط في المجتمع بشكل لا يمكن علاجه في يوم من الأيام.

وأخيرًا فإن المفكر الاجتماعي جالتون Galton انتهى إلى نتائج مختلفة في مجموعها برغم فروقها الدقيقة جدًا، وذلك بعد عمل ملاحظات استنفدت منه كل صبر واحتمال؛ فهو يرى أن الاستعدادات الفطرية موزعة بين أعضاء مجتمع واحد أو جماعة واحدة على حسب قوانين نظرية الاحتمالات.

وقد ذكر بعض المفكرين الاجتماعيين أن هناك تشابهًا كبيرًا بين صراع القوى في العالم الحيواني وبين صراع القوى في المجتمعات الحديثة، ولكن البعض الآخر، ينكر هذا التشابه ويستبعده لوجود فوارق واضحة بين هذا وذاك. فكلما أصبحت المجتمعات الإنسانية أكثر اتساعًا، وأكثر تفكيرًا، وكلما تعقد تقسيم العمل، فإن عوامل التنظيم. أعني عوامل المساعدة والتعاون تغدو أكثر أهمية.

أما فيما يختص بالنتائج الجماعية للحرب، فكثيرًا ما يلابسها تعقيدات وتناقضات. وقد يحدث أن يتكاثر عدد الجنس المنتصر أكثر من الجنس المهزوم، وخاصة في البلاد التي يتزوج فيها الرجل عدة نساء، أو المرأة عدة رجال، وكذلك في الجنس الذي يمارس خطف النساء والذي ينتج عنه

حينئذ امتزاج الأجناس بعضها في بعض بصورة شديدة. وأحيانًا يحدث العكس في البلاد الأخرى ذات الحضارة، فإن الجنس المهزوم الذي ينتكس إلى طبقة أسفل يأخذ مكانة الجنس المنتصر شيئًا فشيئًا عندما يقل تكاثر الطبقة الموجهة خصوصًا في المجتمعات التي لا يسمح فيها بالزواج إلا من امرأة واحدة.

المدارس الأنتروبولوجية والأنترولوجية

كان توسيديد Thucydide وفيكو Vico من أوائل المفكرين الاجتماعيين الذين علقوا أهمية كبيرة على العلوم الاجتماعية في دراسة المجتمعات البدائية.

ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر، اهتم المفكرون الاجتماعيون بدراسة قصص الرحلات ودراسة أخلاق الشعوب القديمة. وقد نعت الأفريقيون البدائيون والأمريكيون وسكان المحيطات في العصور الوسطى حتى القرن السادس عشر بأوصاف فيها كراهية واشمئزاز لمجتمعاتهم. ثم أتى بعد ذلك، رد الفعل المضاد في القرن الثامن عشر، وكان هذا انتصارًا لأسطورة "المتوحش الطيب" الذي تحدث عنه جان جاك روسو وشاتوبريانChateau briand.

وفي القرن التاسع عشر، بدأت دراسات موضوعية للمجتمعات البدائية. فقد اكتشف شيئًا فشيئًا كيفية تنظيمها، وجهاز القبائل، وفروعه واختلاف مفاهيم القرابة الإنسانية.

وقد وضح لدى مفكري القرن التاسع عشر التشابه بين التنظيمات

البدائية، وبين تنظيمات أصول الإنسانية. وقد أشار "ماسكراي Masqueray" إلى التشابه كذلك بين تنظيمات البربر في شمالي أفريقيا وبين تنظيمات المدنية اليونانية البدائية. وفي مؤلفات شهيرة لجيمس فريزر James Fraser، ذكر أن بعض التنظيمات البدائية تحولت شيئًا فشيئًا حتى أصبحت تنظيمات لشعوب أكثر مدنية.

ولكن تفسيرات جيمس فريزر كانت قائمة على نظام في التفكير يتشابه عند جميع الناس في جميع العصور، أما عن وجهة نظر، ل. ليفي برهل L. Lévy – Bruhl فقد كان فرضه على عكس ذلك حيث يقول: "إن نظام الفكرة البدائية يختلف عن نظام الفكر عند رجال هذا العصر، ولا يكمن هذا الاختلاف في معتقداتهم وتفسيراتهم للعالم المتغير فحسب، بل وفي طريقة التدليل على الأشياء كذلك. وأصل المطابقة التي تغلب على طابع تفكير هذا العصر تعارض طريقة المشاركة عند البدائيين؛ فقد يكون الإنسان هو ذاته أو شيئًا آخر. وتمتد الذاتية الإنسانية في كل توابعها ويمكن المرء أن يؤثر عليها عندما يمتلك طيفها أو بعض أجزاء من جسمها".

وهذا يؤدي بنا إلى قوانين السحر، فيتمثل السحر كأنه انحراف "للتكنيكية" بل هو "تكنيكية كاذبة"، وعلم كاذب، فقد تتفق تقريبًا طرائقه مع قائمة "السفسطة" كما يحددها المنطق الكلاسيكي، وأهم بنود هذه القائمة هي "قانون الاتصال" و"قانون التشابه". وقد أشار لويس فيبر Louis Weber إلى كيفية أن السحر كان يمثل أقصر الطرق، وتفهم الأمور يتكون على الأخص عن طريق التشابه مع العلاقات الاجتماعية،

وإمكانيات تحضير الأرواح عن طريق التخاطب والرسم والكتابة.

وينبغي لدراسة طبائع السلالات البشرية أن نضيف عليها دراسة العادات الشعبية (الفولكلور). والدور العام الذي يقوم به هو تبيان ما تخلف عن آثار العقلية البدائية والسحر في الشعوب المتمدينة، وبخاصة بين سكان الريف.

تجديد علم الاجتماع المثالي

يتميز هذا التجديد بطابعه الحيوي أو "الديناميكي" فيقول فوييهFouié: إن آمالنا تحتوي على أفكار وآراء "محركة قاهرة" – idées forces ستؤثر إن آجلاً أو عاجلاً على الحقيقة وستساعد على تغيير العالم. أما كارل ماركس فقد أعطى ما أطلق عليه اسم "الدافع الذاتي" أهمية كبيرة وكان جورج سورلGeorges Sorel أحد الداعين إلى مثالية "العنف" وكان يعلن أنه يتحتم على التنظيم المهني أن يحل محل الدولة التقليدية، ولكي يحدث هذا ينبغي على البروليتاريا أن تتصف بالفضيلة وبالاستعداد للكفاح. وقد شاءت سخرية الزمن أن يكون موسيليني هو تلميذه وأن يقوم بما قام به باسم الشعارات التي أطلقها سوريل.

ولم يفت برجسونBergson أن يتوج أعماله الفلسفية برسالة عن دراسة المجتمعات، فهو يعتقد أن المجتمعات في أية لحظة متحركة بوساطة مثل أعلى مسيطر عليها. ولكن هذا المثل الأعلى يتغير، لا عن طريق المصادفة، ولكن عن طريق الحركة الدائمة في جميع الاتجاهات. وعندما يستنفد جهاز أو نظام محتواه المنطقي، أو عندما يحقق نفسه في المنظمات

إلى درجة تخرجه عن طابعه الأصلي أو مثله الأعلى الذي رسم له، وأن يثير مقاومات عنيفة، ما يلبث أفراد هذا النظام أن يتخلصوا منه، ويختاروا لأنفسهم مثالاً أعلى مضادًا، وهذا ما يطلق عليه "قانون الهذيان المزدوج" ويفسر هذا القانون حركات التاريخ الواحدة تلو الأخرى، وظهور أنظمة من المعتقدات والمجتمعات التي تزيح كل منهما الأخرى من أمامها بالتوالي. ولكت برجسون يعتقد اعتقادًا راسخًا في التطور وأنه خالق ومبدع. فكل الظواهر سواء أكانت نفسية أم اجتماعية أم تاريخية غير قابلة للرجوع إلى الوراء وهي كذلك – للأسباب نفسها – غير ممكن التكهن بها. وهو لا يعتقد إطلاقًا في "القدرية" بجميع صورها المختلفة، فهو يقول. "إن مستقبل الإنسانية سيظل غير محدود المعالم لأنه يعتمد عليها".

ويقسم برجسون المجتمعات إلى جماعتين رئيسيتين: المجتمعات المفتوحة والمجتمعات المقفلة.

ففي المجتمعات المقفلة، يقف القائمون بالأمر فيما بينهم غير مبالين ببقية أفراد مجتمعهم على استعداد للصراع أو عن الدفاع عن أنفسهم، مجبرين على أن يتخذوا لأنفسهم طريق الكفاح، وهذا هو طابع المجتمعات البدائية المحصورة والمعزولة. وهو يشير إلى مجتمعات الحشرات التي لها خصائص مشتركة مع المجتمعات البدائية بقوله: "يكون موقفها في نهاية إحدى الخطين الهامين من التطور الحيواني، كما أن المجتمعات الإنسانية يكون موقفها في نهاية الخط الآخر".

أما المجتمعات المفتوحة فهي المجتمعات التي تحتضن في الأصل

الإنسانية كلها، ويكون الاختلاف فيما بينها في الكيف لا في الكم.

وإزاء النظريات التي تحدد عمل الأفراد وأفكارهم بمكانتهم في المجتمع يذكر برجسون "أن هناك نبلاء تعاونوا على إنجاح ثورة ١٧٨٩ التي ألغت امتياز النسب والحسب الذي كان يعطي الفرد في المجتمع مكانة عظيمة"... "وأن القفزات الكبرى التي كانت موجهة ضد عدم المساواة أتت من أعلى لا من أسفل".

وقد رد برجسون على إميل فاجيه **Emile Faguet** الذي كتب يقول: "إن الثورة اندلعت لأن الشعب كان يموت جوعًا، بقوله: "يجب أن نعرف لماذا رفض الشعب عند لحظة معينة الخضوع للموت جوعًا؟".

الباب الثالث

المواقف الحاضرة لعلم الاجتماع

الفصل الأول

التباعد بين المذاهب والنظريات

يبدو لنا اليوم أن علم الاجتماع قد دخل مرحلة جديدة ألا وهي المرحلة العلمية. وقد أعقب المرحلة القديمة للأنظمة الكبرى وللنظريات الكثيرة التي كانت تفسر الحياة الاجتماعية بحركة واحدة أو بعمل دافع واحد، مرحلة التجزئة. وبمجرد أن تعدى الإنسان التشابه الكلي في المجتمعات البدائية، أضحت الحياة الاجتماعية مادة معقدة تتشابك فيها الأعمال المتشابهة لكثير من الدوافع. وهذه هي إحدى العقبات للعلوم الاجتماعية. وتعمل الدوافع المختلفة بقوى شديدة متنوعة أشد التنوع على حسب العصور والظروف، وتبع ما نطلق عليه في كلمة واحدة اسم "اللحظة التاريخية".

وقد أراد رواد علم الاجتماع أن يبدئوا "بالتركيب". وفي إحدى المناقشات الشهيرة لإميل ليفاسير **Emile Levasseur** عن علم الاجتماع أنهى حديثه بقوله: "انصح علماء الاجتماع بالاعتدال".

وقد حافظ علم الاجتماع على هذا النصح من قبل هذا الأخصائي في الأبحاث الإحصائية. وقد بدأ علم الاجتماع يخطو خطوات إلى الأمام بكل حكمة واتزان، ويصنف ويجزئ ويحلل كذلك.

وأول هذا التمايز الذي ينبغي علينا أن نوضحه بكل عناية في جميع

العلوم وبخاصة في علم الاجتماع هو الاختلاف بين المذاهب والنظريات. فحتى العصور الوسطى، كان من الصعب على الفلسفة أن تتخلص من الديانة التي كانت بمثابة الخادمة لها، وكان علم الاجتماع معرضًا على الدوام للخضوع لتيارين: التيار الفلسفي والتيار السياسي. والفضل الأكبر الذي يعزي إلى أوجست كونت أنه أبعد الدراسة الاجتماعية والتفكير الاجتماعي عن الميتافيزيقيا، ولكن ظهر أنه من الصعوبة بمكان تحرير علم الاجتماع من تأثير السياسة المقنع أو المكشوف.

ومن الواضح أن المرء لا يستطيع أن يطالب السياسة بالتوقف عن التدخل حتى يتم تشكيل علم اجتماعي قائم على أساس واقعي من الحياة الاجتماعية الخالصة للإنسان، وبعيد عن أي مؤثر خارجي أو داخلي. ولا يغرب عن بالنا أن الانقلابات السياسية هي التي حركت أو نبهت التفكير الاجتماعي، وهي التي أثارت حيوية الفكرة.

ولم تحاول الاتجاهات السياسية المختلفة أن تندمج في علم الاجتماع إلا عن طريق انحراف المذاهب، فكل صاحب مذهب من هذه المذاهب لم يعبر إلا عن جميع آرائه واختباراته الشخصية. فالأداة العلمية لكل مذهب تقوم على إثبات حقيقته بالبراهين الثابتة، وبالحقائق المؤكدة. فكل مذهب اجتماعي تتوافر فيه هذه الأمور يكون صالحًا للتطبيق ويصبح بجانب ذلك مذهبًا تشريعيًا.

أما النظريات، فهي تحتوي على ترتيب الحقائق وتفسيرها بوساطة مجموعة من الفروض ومن المبادئ القابلة للمناقشة عندما تظهر حقائق

جديدة لا تتفق معها. وعلى ذلك فالنظرية تشارك العلم من حيث التعميم "والتركيب" المحدود.

ويؤدي الفرص دورًا آخر: دور إثارة البحث الذي تقدم له اقتراحات "ممكن" إثباتها والتحقق منها بوساطة البحث أو التجربة.

إميل دركهيمEmile Durkheim (١٨٥٨ – ١٩١٧)

مفكر اجتماعي ولد في مدينة ابينال Epinal في شرقي فرنسا. وعندما أتم دراسته الثانوية، تقدم لمسابقة الدخول في مدرسة المعلمين العليا بباريس EcoleNormaleSupérieure وتتلمذ فيها على كبار الأساتذة. وبعد أن تخرج في هذه المدرسة اشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية. وقد أتيحت له فرصة الذهاب إلى ألمانيا في إجازة علمية. وقد هيأت له هذه الفرصة دراسة نظمها وأساليبها ودراساتها العلمية. وقد انكب هناك على دراسة علم الاجتماع على أيدي أساتذة كبار أمثال "فاجنر" و"شمولر" و"فونت" ويقال إنه تأثر كثيرًا بأفكار هؤلاء أكثر من تأثره بأفكار "أوجست كونت". ولما عاد من ألمانيا، خصص نفسه لدراسة علم الاجتماع ومما ساعده على ذلك أن كلية الآداب بمدينة بوردو بفرنسا أنشأت كرسيًا لمادة علم الاجتماع، فعهدت إليه بالإشراف على هذا القسم. فبدأت عنايته تتضاعف في معالجة بعض المشكلات الاجتماعية. وكان مما يميز دركهيم عن غيره من المفكرين الاجتماعيين أنه كان يجمع بين تدريس علم الاجتماع والتربية.

وكانت أول مشكلة عالجها وألف فيها رسالة نال بها درجة الدكتوراه

في السوربون مشكلة "تقسيم العمل الاجتماعي" ثم ألف كتابًا عظيمًا رفعه إلى مصاف كبار الأساتذة وهو "قواعد المنهج في علم الاجتماع". ثم انتقل من بوردو وأصبح أستاذًا لعلم الاجتماع في عام ١٩٠٢ في "جامعة السوربون(١)".

ويعتبر إميل دركهيم أحد الذين ساعدوا مساعدة كبيرة على إضفاء خصائص العلم الحقيقي على علم الاجتماع. وبفضل تأثيره الشخصي التف حوله كثير من تلاميذه وأسس مدرسة ساعدت بقوة على تقدم معرفة الظواهر الاجتماعية.

وتمثل أعمال دركهيم مجهودًا ضخمًا في إقامة أساس علمي ارتكز عليه علم الاجتماع، وفي سبيل هذا الهدف، أنشأ مجموعة من المعاني الشاملة لهذا العلم، وحدد تحديدًا قاطعًا طرائقه في البحث والتفسير. وبهذا حصل علم الاجتماع "الدركهيمي" على مكتسبات كثيرة ومفيدة نذكر منها:

١- الحقيقة الاجتماعية: يقوم دركهيم: "إنه ينبغي على علم الاجتماع أن يعد طرائقه العلمية، وألا يقوم بدراسة الظواهر الاجتماعية عن طريق المصادفة ويتحتم عليه بعد أن يضع في الأصل "نوعية" المجتمع تحديد الحقيقة الاجتماعية.

ويقول دركهيم: "إن الحقيقة الاجتماعية تعرف بخاصيتها الواقعية. وفي الواقع، أنها لا تعتمد علينا في تغييرها إلى حسب هوانا، بل هي تمثل حقيقة خارجة عن الفرد. وفي مواجهة الفرد، تعرف الحقيقة الاجتماعية عن طريق

---

(١) للمترجم.

القهر. ويمكن دراسة الحقيقة الاجتماعية موضوعيًا، شأنها في ذلك شأن دراستنا "للأشياء". ويقول دركهيم: "إن الشيء قد يتعارض مع الفكرة، كما أن ما يعرفه الفرد خارجيًا قد يتعارض مع ما يعرفه داخليًا".

(٢) التمايز بين أحكام القيمة وأحكام الحقيقة: تشمل أحكام الحقيقة منطوق بعض البديهيات البسيطة مثل "الثلج أبيض". أما أحكام القيمة فتشتمل على تقدير، وهذا التقدير هو الذي يحدد هدفه في الحياة الاجتماعية، وقد يصبح هذا الشيء لا معنى له بدون هذه الحياة! ومثال ذلك، أنه لن يكون هناك قيمة اقتصادية لسلعة من السلع دون أن يكون لها حق التبادل مع سلعة أخرى، وأن يكون لها سوق، وكذلك القيمة الأخلاقية: فعندما نقول "بيير خير" فالمقصود من ذلك معنى مضاف مشتق من الحياة الاجتماعية.

(٣) معيار الإكراه: كل شيء يثير إلزامًا أو إكراهًا شيء اجتماعي صرف، وهذا الشيء الإلزامي إما أن يكون إيجابيًا أو سلبيًا. وقد ينتج هذا عن مقاومة مادية، مثلاً عندما نرغب في شراء أو بيع شيء زيادة عن قيمته المستحقة مهما كان العقاب الملزم، وعندما لا نهتم باتباع ما جرى عليه العرف مهما كانت عقوباته الشديدة، وعندما نصطدم بقوانين البلد أو قواعدها الأخلاقية.

وأما من حيث أفراد المجتمع فإنهم يحملون في أنفسهم هذا الإكراه. أو الإلزام. وقد يظهر في داخل نفوسهم تحت صورة عدم الارتياح والملل وتبكيت الضمير.

(٤) تقسيم العمل: كان آدم سميث يعتبر تقسيم العمل الحقيقة الرئيسية للاقتصاد. ويبين دركهيم أن تقسيم العمل يحدد كذلك الأخلاق والقانون وبقدر ما تزداد "الكثافة الاجتماعية" تزداد من ثم حدة تقسيم العمل، وعندما يحدث هذا التطور في المجتمع فإن ميدان قانون العقوبات الذي يوصف بالعقوبة الرادعة، سينكمش في سبيل ظهور القانون المدني الذي يوسف بالعقوبة المصلحة، وبذلك، تتجه الطبقة المهنية إلى أن تحل محل الطبقة الأرستقراطية أو العسكرية التي تحتل مكان القيادة دائمًا. ويحل العقد محل القانون. وقد أثبتت الأحداث الأخيرة وجهة نظر دركهيم كما كذبت وجهات نظر سبنسر Spencer

وهي تبدو أنها تشير إلى إمكانية تنظيم صناعي ذي سلطة قائم على العمل الإجباري وتسلسل ذي طابع عسكري، أعني الطابع الذي تحل فيه العقوبات الجنائية (السجن والنفي والتحقير) محل العقوبات الاقتصادية (التأجيل. والغرامة، والحرمان).

ونرى أن بوجليه Bouglé عندما طبق طريقة دركهيم يؤكد أن أفكار "المساواة" لم تنتشر إلا في المجتمعات الكثيفة بالسكان وبخاصة في المدن الكبرى.

ونحن لا يمكننا التحدث عن علم الاجتماع إلا عن قوانين أو مؤثرات تقريبية، ونرى أن القوانين الاجتماعية لها هدف محدود في المكان والزمان وأي مفكر يحاول أن يضع قانونًا في علم الاجتماع ينبغي عليه أن يجيب عن هذه الأسئلة: أين؟ ومتى؟ وفي أي الشروط؟

وقد بدأنا بعرض للمواقف الحاضرة لعلم الاجتماع على حسب وجهة نظر دركهيم، وهو يعتبر أول من أبعد علم الاجتماع عن الدين وعن الفلسفة وعن السياسة. وربما قد ذهب أبعد من ذلك؛ فلشدة تحمسه البالغ، أراد أن يغير من وظائف علم الاجتماع، وأن يحاول أن يجد فيه التفسير النهائي للدين، والفلسفة. وقد انتهى إلى القول بأن درجات الفهم هي الإشعاع للتركيبات الأولية الاجتماعية.

الفصل الثاني

الهدف الحاضر لعلم الاجتماع

كان التفكير في المسائل الاجتماعية أيام الإغريق يتضمن معرفة عميقة بالتاريخ وحياة المجتمعات، وكان يتضمن بجانب ذلك معرفة بمعتقداتهم الدينية والفلسفية وبالأساطير، والأيديولوجيات التي تعبر عن أعمالهم وأفكارهم وقوانينهم وتنظيماتهم السياسية، وحياتهم الاقتصادية. وعلى ذلك، فقد ظهرت الفلسفة الاجتماعية كأنها تتويج لكل هذه الأعمال وكأنها نتيجة لحصيلة معارفنا السابقة.

ونجد هذا الوضع "الموسوعي" للفلسفة الاجتماعية عند جميع المبشرين بهذا العلم. ونحن نعرف المكانة التي كان يحتلها التفكير في العلوم الطبيعية والطبية، وقد استرعى أوجست كونت الأنظار إلى هذا الوضع الجديد لعلم الاجتماع بتصنيفه العلوم وبمنهجه في الفلسفة الوضعية.

ومن وجهة أخرى، فإن تاريخ علم الاجتماع يشير إلى أنه من الصعب علينا تصور وجود مفكرين اجتماعيين خلص. ونحن نرى هؤلاء ملزمين في دراستهم بالاستناد إلى حصيلة علم أو أكثر من العلوم الخاصة، وقد يكون أحد هذه العلوم تشريعيًا، والآخر اقتصاديًا أو نفسيًا.

أما من جهة هؤلاء الذين أرادوا برغم كل شيء إنشاء علم اجتماعي مستقل تمام الاستقلال فإنهم قد اتجهوا إما إلى نظام كله تعاليم جبرية، وإما

إلى نظريات شكلية أو خداعة إلى حد ما، مثل نظريات فون فيز Von Wiese

ففون فيز يبني وجهة نظره على أساس تأثر كل فرد بالأفراد الآخرين وينتج عن هذا التأثر "مسافة اجتماعية" تختلف عن المسافة المادية التي تفصل بينهما. وتعبر هذه المسافة الاجتماعية عن مدى التقارب والتوافق الاجتماعي بين الأفراد أو تعبر عن مدى التباعد والنفور بينهم.

ويعتبر فون فيز أن الموضوع الرئيسي لعلم الاجتماع هو دراسة شبكة المسافات أو الأبعاد الاجتماعية التي بين أفراد المجتمع. ويفسر المسافات أو الأبعاد الاجتماعية بنوعين من العمليات الاجتماعية.

النوع الأول: التكيف الاجتماعي والتمثيل الاجتماعي، وهي عمليات تقارب وتواصل واندماج وتوافق.

النوع الآخر: يتكون من عمليات أبعاد وانفصال ومنافسة وتصادم.

وقد أوضح لنا فون فيز أربع صور من الأشكال الاجتماعية:

(١) الجماهير المؤقتة: ويمتاز هذا الشكل بعدم استقرار العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

(٢) الجماهير المجردة: ويمتاز هذا الشكل بعدم خضوع الجماهير لعلاقات اجتماعية منظمة أو ثابتة وكأنها تمتاز باستمرارها.

(٣) الجماعات المنظمة: ويمتاز هذا الشكل باستمراره وتواصله النسبي والتي تمتاز فيها العلاقات الاجتماعية بمبدأ التخصص وتوزيع العمل،

والتي سيكون بين أفرادها تقاليد مشتركة وتقصر بينهم المسافات الاجتماعية.

(٤) الهيئات المجردة: ويمتاز هذا الشكل بتباعد واتساع نطاق المسافات والأبعاد الاجتماعية بين الأفراد المكونين لها مثل الدولة التي تمثل السلطة السياسية والكنيسة التي تمثل السلطة الدينية والطوائف المهنية التي تمثل السلطة الاقتصادية وهكذا[١].

وسواء أردنا أم لم نرد، فقد كرس علم الاجتماع العام نفسه ليظل فلسفة على نطاق واسع لعدة علوم اجتماعية علوم اجتماعية على حسب تعبير رينيه ورمز René Worms، لأنه يعتبر مقدمة وخاتمة مشتركة لمجموعة من العلوم الاجتماعية. والسبب في ذلك كما يقول بوجليه Bouglé أنعلم الاجتماع العام يستحيل عليه "أن يبدأ إلا عند ما تنتهي بعض العلوم الأخرى" وينحصر دوره في التحليل والتفسير واستخلاص بعض وجهات نظر أو قوانين عامة من حصيلة العلوم الأخرى بقدر الإمكان، وإذن فهو لا يمكن أن يمثل دور العلم الشكلي. بل ينحصر دوره في إقامة تصنيف عام وإعداد "مسلمات" ملموسة وحقائق. لكن لا يمكن لهذه الحقائق أن تنسب إليه إلا عن طريق العلوم الاجتماعية الخاصة. وقد يؤدي أي مفهوم آخر لعلم الاجتماع إلى أن يصنع منه إما جهازًا خالصًا من التعليم، وإما نوعًا من التفكير الذي يعمل في الفراغ أي التفكير النظري. ومهما يكن فإن علم الاجتماع أضحى علمًا بعيدًا كل البعد عن التأمل النظري.

---

(١) للمترجم.

وكان دركهيم يلاحظ في "القواعد" أنه يستحيل ماديًا على أي مفكر أن يمتلك معرفة كلية تجميع العلوم الاجتماعية الخاصة، ويتطلب هذا الموقف الإلمام بالتقدم الذي أحرزته هذه العلوم، إذن ينبغي على علم الاجتماع ألا يتراجع أمام هذا العلم العقيم الذي يحتوي على عمل ملخص لجميع العلوم الاجتماعية الأخرى. وفروضها، وأبحاثها، واكتشافاتها.

وأهم ما في طريقة علم الاجتماع هو طريق المقارنة، المقارنة بين المجتمعات بعضها وبعض، وبين مختلف منظماتها، وينبغي عليها كذلك مواجهة جميع الأساليب والطرائق المختلفة التي تستخدمها.

وتحمل هذه الطرائق قواعد للنظام العام الذي يمكن المرء أن يعتبر هذه القواعد مشتركة لجميع العلوم الاجتماعية، ولكن هناك كذلك طرائق "نوعية" تختلف كل واحدة منها عن الأخرى: فمثلاً طريقة دراسة علم السلالات البشرية وطبائعها Ethnologie تختلف تمام الاختلاف عن طريقة علم الإحصاء. والسؤال هو أن نعرف: إلى أي حد تستطيع هذه الطرائق النوعية أن تندمج معًا، وأن تتعايش معًا، وما الهدف والمكان الصحيح لمفهوم القانون في كل حاجة على حدة؟

وللفن أمام أعيننا أهمية منهج الكشف عن مشكلات هذه الطريقة عندما نتعرض لدراسة إحدى هذه الوظائف الكثيرة العدد أو المنظمات المتجانسة تقريبًا التي نلمسها في كل المجتمعات المختلفة، وفي كل العصور، مثال ذلك: الأسرة أو الحرب، فكل مشكلة من هذه المشكلات لها يبررها من ناحية جغرافيتها الإنسانية، وتحليلها الإحصائي. و"اتنولوجيتها"

وتاريخها وأدبها المقارن، وتاريخ مذاهبها وأفكارها، لأنه كما يقول مارسل موس Marcel Mauss لا توجد إلا حقيقة واحدة وهي الحقيقة الكلية. وهذه الحقيقة الكلية هي التي يجب أن تحلل وأن تجزأ على حسب المبدأ الديكارتي.

وفي دراستنا عن الحروب، حاولنا أن نطبق هذه الطرائق المختلفة الواحدة تلو الأخرى للأشكال الكثيرة لهذه الظاهرة التي لا تتغير أساسًا.

وتحتوي طريقتنا في دراسة الحروب على أن تخضع تقاريرنا وأبحاثنا تبعًا لقاعدة "الموضوعية المتناقضة".

(١) الوصف الخارجي الخالص البسيط، وهذا الوصف يجيب عن السؤال الآتي: ما الذي يحدث؟ وكيف نتصور الحرب؟ ثم يأتي بعد ذلك التعداد الإحصائي عندما يكون ممكنًا، وعلى ذلك نحدد الخطوط الأولية لأصل نشأة الحروب.

(٢) ثم نمضي من ثم إلى درجة أخرى من الموضوعية أقل من الأولى تتصف بعناصر نفسية، وهذه الدرجة عبارة عن عرض وتصنيف لمختلف نماذج المبررات والدوافع التي يقدمها منشئو الحروب أعني هؤلاء الذين يقررونها ويضعونها.

(٣) ثم تأتي بعد ذلك الشروح المحدودة أعني عرض أفكار واضعي النظريات السياسية والمؤرخين والاقتصاديين الخاصة بسلسلة من الصراعات المسلحة، أو بشرح إحدى الصور الخاصة بالحرب.

(٤) وأخيرًا، مذاهب النظام العام مثل مذاهب رجال الدين والفلاسفة

والأخلاقيين.

وتحتوي هذه التصرفات، وهذه الآراء بالنسبة للمفكر الاجتماعي على حقائق صالحة للملاحظة والتي يتحتم دراستها موضوعيًا. وأهميتها كبيرة جدًا في الدراسات الاجتماعية فضلاً عن الآراء المتغلبة، سواء أكانت آراء صحيحة أم وهمية تؤثر بدورها في الحقيقة لأنها تترجم بدون شك عن نفسها.

ويمكن تلخيص هدف علم الاجتماع في النقاط الآتية:

(١) دراسة الأنظمة الاجتماعية والعناصر المشيدة لها ووظائفها.

(٢) دراسة الظروف التي تطورت فيها بعض التنظيمات الاجتماعية.

(٣) مقارنة "النتائج التي حصلنا عليها عن طريق العلوم الاجتماعية الخاصة".

(٤) دراسة الاتصالات بين هيكل المجتمعات "والأنماط" العقلية للأفراد الذين يكونون هذه المجتمعات (وهنا تؤدي السيكولوجية الاجتماعية دورًا هامًا).

(٥) دراسة العوامل التي تساعد على حدوث تغييرات في الأنظمة الاجتماعية.

الفصل الثالث

علم الاجتماع الثابت "الستاتيكي"

وهناك تمايز واضح بين علم الاجتماع الثابت "الستاتيكي" وعلم الاجتماع التطوري "الديناميكي" كما اقترحه أوجست كونت، وفي الأصل، ينبغي على علم الاجتماع الثابت ان يدرس المجتمعات في لحظة معينة، أو كما يقول كونت في المكان. وإذن فإن عمله "وصفي" وبذلك ينحصر عمله في دراسة التنظيمات الاجتماعية وتنوعها. أما علم الاجتماع التطوري فيدرس التنظيمات الاجتماعية في "الزمان" فقط ويحلل ويفسر متنوعاتها وتغيراتها.

ولا يستطيع علم الاجتماع الستاتيكي إلا أن يكشف عن ثبات نسبي، لأن حياة المجتمعات تتضمن عدة سلاسل متشابهة من حركات دورية غير متساوية، تلك التي تتصادم معًا في جميع الاتجاهات. ويتكون الإنتاج الاقتصادي وتبادل السلع والحياة ذات الفصول الأربعة والحياة السياسية والدينية من التكرار المنظم للدورات. وتتكرر كل هذه الظواهر بانتظام في "الزمان" ودورتها عنصر من العناصر المشيدة للنظم الاجتماعية. وعلى ذلك فإن الحياة الاقتصادية توصف بأنها دورات تقوم على تنظيم الإنتاج الزراعي من وقت البذر حتى وقت الحصاد، وعلى هذا المنوال، يسري الشيء نفسه على الصناعة وعلى تداول السلع والنقود، وتتسلط

بعض الظواهر الدورية غير المعروفة تمامًا لدينا والمدة الطويلة ذاتها على المجتمع مثل ظاهرة الأزمات الدورية للإنتاج الزائد وانخفاض الأسعار.

ولنتحدث الآن عن حياة المنظمات: تحتوي التظاهرات الرئيسية للمعتقدات الدينية على احتفالات للعبادة دورية، وهي غالبًا ما ترتبط بنظام كوني مثل نظام الفصول، أو ظروف حياة الأفراد. فالولادة وقبول الشاب كعضو في المجتمع، والزواج والموت، كل ذلك يؤدي إلى حفلات ذات طابع ديني خاص. ومثل هذه الحلل نجد نظيرها في الحياة السياسية: فوصول الرؤساء إلى كراسي الحكم، والانتخابات، والخدمة العسكرية واجتماع المجالس النيابية لها كذلك احتفالات دورية. ويمكن القول بأن كل الفرص الملهمة التي عن طريقها تقام وتتجدد الاتصالات بين أعضاء المجتمع الواحد مثل الأعياد، والعبادات والأسواق الخ... لها كذلك طابع دوري.

وقد نضيف إلى هذا ظاهرة الحرب، فقد كشف بعض المفكرين الاجتماعيين أخيرًا عن دورات تاريخية أعني التكرار المنظم أو الدوري لبعض الحوادث أو لبعض المنظمات.

وأهم مظهر لهذه الدورات إنما هو تأثيرها الفعال على نفسية الأفراد؛ فقد يحدث في فرصة الاحتفالات، سواء منها الدينية أو السياسية أو العسكرية اختلاط غريب من الإلهام الجماعي، ومن الإخلاص ومن الحالات النفسية المتجانسة بين الأفراد. فالاجتماعات والاحتفالات فرص للسرور والأحزان والخوف الجماعي.

الهياكل الاجتماعية

ودراسة الهياكل الاجتماعية تتطلب أولاً دراسة الصورة العامة للمجتمعات ووضعها الجغرافي، وحالة توزيعها في "المكان" وخصائص سكانها. ومن الأهمية بمكان دراسة مختلف الصور التي تمثلها هذه المجتمعات الإنسانية. وينبغي علينا حين دراستها أن نفحص الحالة التي أصبحت عليها بعد أن جزأت نفسها أو انقسمت فيما بينها، وقد اقترحت عدة تقسيمات لهذه الدراسة الاجتماعية.

والواقع أن دراسة الهياكل أو التركيبات الاجتماعية موزعة بين عدة علوم اجتماعية وهي الجغرافية الإنسانية، وتحليل النظم الاقتصادية، واجتماعية الأسرة، والقانون الدستورين والجغرافية السياسية، وعلم اللغات، وعلم توزيع السكان.

العقليات أطر ومحتويات

وتحتوي العقليات على منظمات عقلية حقيقية لها اتصال بالمنظمات الاجتماعية، وتتضمن دراسة العقليات وتنوعها المشكلة الأساسية للنفسية الاجتماعية، وأكثر من ذلك، فهذه المشكلة تقوم على تحليل علم الاجتماع، من جميع نواحيه، لأن جميع الظواهر الاجتماعية تنعكس وتعبر عن نفسها في أفكار أصحاب هذا العلم. وتوضح هذه العقليات كيف أن الحالات الاجتماعية عاشت، وترجمت، وأحس بها أفراد المجتمع؟ وقد شعر أوجست كونت بأهمية المشكلة، فكل حالة من الحالات الثلاث التي سبق شرحها عند التحدث عن أوجست كونت تمثل عصرًا من عصور التاريخ

التي مرت بها العقليات.

وقد عرف أندريه لالاند André Lalande العقلية بأنها "مجموعة من الاستعدادات الفكرية وطبائع الروح، ومعتقدات أساسية عند الفرد" وفي التحليل الأولى الذي اقترحناه للعقلية، أوضحنا ثلاثة أطر رئيسية يمكن المرء أن يلمسها في جميع المجتمعات من المجتمعات التي هي أكثر بدائية إلى المجتمعات التي هي أكثر تعقيدًا وهي:

(١) علم القوانين الذي يحكم العالم أعني التفسير الحقيقي أو الوهمي للعالم.

(٢) علم الأخلاق وهو مجموعة القواعد والمعتقدات التي تختص بعلاقات الرجال فيما بينهم وتحكمها.

(٣) فنون الإنتاج ونعني مجموعة المعارف والطرائق الفنية التي عن طريقها يعمل أفراد المجتمع لسيادة الطبيعة.

وهذه الأطر في كل مكان، ولكن الذي يجعلها تختلف وتتنوع من مجتمع إلى آخر هو محتوى العقليات. وهذا المحتوى نتيجة للمجهود الذي تم بوساطة كل حضارة ومجهودها للوصول إلى معرفة الحقيقة على أوسع نطاق، ويعتمد هذا المجهود على الفحص والعمل والتكيف في وقت واحد، وعلى ذلك تأتي العقلية من الثقافة النوعية لمجموعة من الناس.

وينبغي علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا:

(١) الاتجاهات الديناميكية الرئيسية مثل: الحاجات والغرائز والميول، ولكن هذه الاتجاهات لها طابع مشترك لا يظهر لنا إلا تحت الصورة

أو الشكل الذي تمنحه الحياة الاجتماعية هذه الاتجاهات.

(٢) درجات الفهم التي بدونها لا توجد فكرة، ولا أي أثر لعمل في أي مجتمع، وهذه الدرجات هي بالضرورة المكان والزمان والمشابهة والسببية، وأحكام القيمة وأحكام الحقيقة. ويجب أن نعلم أن هذه الفئات من وجهة نظر دركهيم نتائج لدوافع اجتماعية.

وقد تقابلنا بعض "صور للانتقال" بمناسبة التحدث عن العقليات: فالسحر مثلاً يمثل صورة من صور هذا الانتقال: فتارة يكون علمًا تكنيكيًا غير قائم على أسس علمية، وتارة أخرى يندمج مع المعتقدات الدينية، ولكن الأديان استطاعت أن تتخلص شيئًا فشيئًا من السحر. وقد ساعدت الثورة المسيحية على تطور العلوم والفنون المادية بجعلها مستقلة استقلالاً كليًا عن المعتقدات.

ومن الدراسات المهمة للنفسية الاجتماعية دراسة الفكرة الاجتماعية للبدائيين، ومعتقدات المجتمعات القديمة والبدائية، وقد هيأ صغر هذه المجتمعات وعدد أفرادها القليلين وتمايزها الضعيف وضيق معارفهم، للمفكرين أن يأخذوا فكرة جامعة عن عقلياتهم، وعلى ذلك فالوظائف الرئيسية التي تشكل مجتمعاتهم تبدو واضحة لأنها، ليست غارقة تحت طائفة من النظم التي يتلو بعضها بعضًا.

الإرجاع النفسي L'Interpsychologie

وهذه الدراسة تضع المشكلة الرئيسية لأشكال العمل في المجتمع على عاتق الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع.

ولكن هل يمكن أن يكون هذا العمل مباشرًا، أعني أن يمارس بطريقة لا شعورية من داخل أنفسنا؟ هذا السؤال يعتبر من أدق الأسئلة وأكثرها حساسية لعلم الاجتماع، لأن المفهوم العام للعلاقات الإنسانية والنظم التي تتعلق بالقانون والأخلاق والتنظيم السياسي تتغير من وقت إلى آخر.

وإذا جاز القول بأن الإنسان يستطيع أن يكون لديه إدراك مباشر بحالات المجتمع الذي هو جزء منه، فإنه ينتج عن ذلك زيادة قوة المعتقدات الرومانتيكية. وسوف نكون مضطرين أن نعالج بكل احترام "قفزاتنا" كأنها رسائل ليست موحي بها من الآلهة، لكن موحى بها من "الوجدان الاجتماعي" وعندما نقبل هذه النظرية التي ستكون نتيجتها البالغة نوعًا من التكهنات الاجتماعية، فإنه ستتمخض عن ذلك تلك المناقشة التي نريد أن تعرف: من له حق تمثيل الوجدان الاجتماعي؟

هل ستكون لأقلية، أي لطائفة رجال الدين التي تدعي لنفسها النيابة عن أفراد المجتمع في تمثيله للوجدان الاجتماعي؟ أو أن لكل شخص صوتًا في تمثيل هذا الحق، ومن هذا الحق، تتولد المشكلات التقليدية للمذاهب الدينية والسياسية؟.

ومهما يكن من أمر، فإنه لا يبدو أن هناك حقائق غير قابلة للمناقشة تسمح بإثبات إمكانية إدراك مباشر للحواس الداخلية الاجتماعية. ولا ننسى أنه حتى هذه الحواس الداخلية الاجتماعية لتركيبنا العنصري الخاص غير واضحة تمام الوضوح بمعنى أنه قد تكون هناك أمراض خطرة من مدة طويلة كامنة في تركيبنا العضوي وهي خافية علينا دون أن نشعر بها. وعلى

هذا المنوال، قد تكون هناك تغييرات أو اضطرابات اجتماعية موجودة وتعبر حياتنا دون أن نشعر بها. وربما لا ندرك نتائجها. وقد تكون النتائج قابلة للتأويل والمناقشة.

وعلى العكس يستحيل علينا أن ننكر أن تنوع الأنظمة الاجتماعية حتى الأنظمة التي لا نشعر بها ولا ندركها تثير في أساليب الحياة لعدد كبير من الأفراد تغييرات قد تؤثر تأثيرًا كبيرًا في سلوكهم وتصرفاتهم. وينتج عن ذلك وببطء تغييرات في الروح العامة وفي نوع الحياة. وعن هذا تنشأ في المجتمع قوى وآمال جديدة وتيارات جديدة كذلك من الأفكار.

وعلى ذلك، ينبغي على النفسية الاجتماعية أن تدرس ما كان يطلق عليه تارد Tarde "الإرجاع النفسي" ويعني بذلك مختلف الصور لردود الفعل النفسية المتبادلة بين أفراد ينتمون إلى حضارة واحدة. وهذه الصور الرئيسية هي التقليد، والدليل، والإقناع والإيحاء، والكرامة، ومنطق ظواهر الإحساسات المختلفة وصور الإكراه، والرعب ونفسية الجماهير، وظواهر الإيحاء العقلي، والسلوك النفسي الاجتماعي الذي يأتي عن صور التسلسل. وتضيف إلى ذلك دراسة مختلف الصور للاعتقاد، ودراسة ماهية الرضا بدرجاته المختلفة وتظاهراته.

تصنيف المجتمعات Typologie

ممن أحد أهداف علم الاجتماع الثابت "الستاتيكي" هو أن يهيئ للمفكرين إقامة خصائص مشتركة بين المجتمعات المختلفة. فهو يقوم بعمل تصنيف للمجتمعات، وعقد مقارنة علمية بينها. ويشير "دركهيم" إلى أن

المقارنة الاجتماعية غالبًا ما تدعو إلى المغالطة عندما لا تنصب على مجتمعات ليست من طابع واحد. ولقد اقترحت كل الأنظمة الاجتماعية في الأصل كما سنرى فيما بعد مقاييس لتصنيف المجتمعات. وقد كان المفكر الاجتماعي جورج جرفيتش Georges Gurvitch يركز على ضرورة البحث عن طريقة تصنيفية لدراسة المجتمعات، فقد دعا إلى التمييز بين العلاقات الاجتماعية السائدة في الفئات الصغرى المحدودة وبين العلاقات الاجتماعية في التنظيمات والفئات الكبرى، ويعين النوع الأول لدراسة العلاقات الاجتماعية المباشرة في نشأتها التلقائية. وأهم ما يميز العلاقات الاجتماعية في مثل هذه الأنماط التلقائية روح الزمان القائمة على وضع الفرد في الجماعة. أما النوع "الآخر" من العلاقات الاجتماعية فيقوم على دراسة مظاهره الاجتماعية المنظمة بما تشتمل على قواعد ونظم وعادات تبلورت ورسخت في التنظيمات أو المؤسسات الاجتماعية، وهذا ما يفسر خضوع أفراد المجتمع للقواعد والتقاليد والعادات والعرف الراسخة في مجتمعاتهم أو طبقاتهم وإلى السلطة الاجتماعية التي تمثلها مجموعة القوانين في النواحي السياسية والاقتصادية والتشريعية. وسنرى فيما بعد ما الذي تم عمله في هذا الميدان حتى وقتنا الحاضر؟

فتباعد المجتمعات الحيوانية مثلاً فيما بينها وبساطتها في ذلك تمنحنا نظرات إجمالية وتصنيفات موضوعية.

وعلينا أن نميز بوجه عام خصائص الجمهور في أثناء اجتماعاته العرضية واليومية، وتجمعات الأفراد الدورية التي ترتبط غالبًا بصورة من صور الهجرة والتنقل من وقت إلى آخر، ثم يعقب ذلك التجمعات

المتجانسة والدائمة التي يكون للمشتركين فيها اتجاه إلى تثبيت حركاتهم الجماعية، والتمسك بها، لا أن يعزل بعضهم بعضًا. وأخيرًا المجتمعات المنظمة حيث يسود فيها عنصر الطواعية لرئيس أو لأكثر، وعنصر التعاون (العمل المشترك)، وكذلك عنصر تقسيم العمل.

وقد تجتمع بعض الحيوانات وخاصة ذوات الثدي في شبه مجتمعات في أوقات خاصة مثل الذئاب، وعند الحشرات نشاهد أن هناك أنواعًا منها تشارك الأخرى مشاركة صامتة، ولا يبدو أنها تستطيع أن تحيا منعزلة عنها.

وتمارس معظم المجتمعات الحيوانية تقريبًا فكرة الأرض المخصصة "العش" فهي تطاردن بل تحطم كل من يحاول أن يشاركها في هذا العش من مجتمع آخر مثل مجتمع النمل والذئاب والكلاب الخن ويتشابه في هذه النقطة تشابهًا عظيمًا البدائيون الذين كانوا يستمدون غذاءهم ويكسبون حياتهم من الصيد، وقد نجد في المجتمعات الحيوانية فكرة الحرب عندهم والصراع الدامي المنظم بين أفراد المجتمع الواحد. وقد يؤدي مثل هذا الصراع من مجتمع لآخر إلى تحطيم أحدهما أو تقهقره إلى الوراء.

ويؤدي كل مذهب اجتماعي دون شك إل إقامة معيار لتصنيف المجتمعات، وقد أقيم مذهب "أوجست كونت" على علم القوانين الكونية المتغلب. أما عند "دركهيم"، فإن المعيار أخلاقي؛ وهذا المعيار قائم على المبدأ التشريعي المتغلب (فالقانون الرادع قائم على العقوبة الرادعة والقانون المدني قائم على العقوبة المصلحة)، ولكن المعيار التشريعي ينوع نفسه على حسب طرائق تقسيم العمل.

ويرى هربرت سبنسر Herbert Spencer أن الترتيب قائم بالضرورة على طريق النشاط والتسلسل الطبقي المسيطر، مثل المجتمعات العسكرية أو المجتمعات الصناعية. ونجد وجهة النظر هذه مطابقة لوجهة نظر سان سيمون Saint – Simon.

وبعض المفكرين الاجتماعيين الآخرين، يرجحون أولوية المعيار الاقتصادي. وهكذا نرى أن ابن خلدون يصنف الشعوب تبعًا "لنوع النشاط الرئيسي الذي يستمد منه الناس حياتهم". أما كارل ماركس فيصنف الشعوب على حسب فنون الإنتاج والوضع القانوني لتملك الأموال والعقارات.

الفصل الرابع

علم الاجتماع التطوري "الديناميكي"

إن هدف علم الاجتماع الديناميكي هو دراسة تغير المجتمعات وتغير صورها ووظائفها.

وهذا الفرع من علم الاجتماع يعتبر أكثر الفروع حيوية ونشاطًا وقوة، فقد اهتم علماء هذا الفرع بدراسة قضاياه، وأخذوا على عاتقهم مسئولية البحث عن حلول لهذه القضايا.

ومفهوم التغير الاجتماعي مفهوم دقيق وفي حاجة إلى الدقة المتناهية في تحديد معالمه، وذلك أولاً بسبب الظواهر الدورية أو ذات المظهر الدوري. وهناك مصدر آخر لهذا الفرع من علم الاجتماع هو معنى الباثولوجية الاجتماعية. ومع ذلك، فالمرء والحالة هذه تأخذه الحيرة بين التغير الكيفي والتغير الكمي. وغالبًا ما تكون علاقة بين هذين النوعين. ولكن ينبغي علينا أن ندخل في حسابنا نظام تعاقب هذين النوعين واختلاف تطوراتهما، وتنقلاتهما في الزمان والمكان، لأنه لا يتحتم على هذه الظواهر أن يتبع بعضها بعضًا في نظامها المضاد. وتبع الحالات الخاصة، فقد يحدث أن التغير الكيفي يسبق التغير الكمي، أو العكس بالعكس. فمثلاً، يزداد تعداد سكان بلد ما دون أن يحدث أي تغيير اجتماعي كيفي.

وبهذه المناسبة، سبق لدركهيم أن ركز دراسته على الفرق بين الكثافة

العددية، والكثافة الإجماعية، وتكشف الأخيرة عن مدى الاتصالات بين الأفراد مثل المواصلات. والتبادل من كل نوع، والتبادل الفكري والاقتصادي والتضامن الخ.

ولقد شعر مفكرو هذا الفرع من علم الاجتماع بأن هناك معنى للتوازن بين الاتجاهات والجماعات؛ ففي أيامنا هذه، تعمق علم الاقتصاد السياسي في دراسة معنى التوازن. ويمكن القول بهذا الصدد إن جميع قوانينه، وقوانين الأسواق، وقوانين تحديد الأسعار، وقوانين الدخل، والقوانين التي تحكم الظواهر النقدية، كل هذا يقرر أن هناك علاقات توازن.

ومعنى هذا التوازن في علم الاجتماع أكثر تعقيدًا من معناه في علم الاقتصاد، لأنه يحدث اختلافات ووظائف وعوامل عدة، ومن جهة أخرى فإن التقلبات الاجتماعية ليست هي التغيرات، وتتضمن هذه التقلبات تغيرًا دائمًا للهياكل الاجتماعية، أعني أن التنوع لا يكون متبوعًا بالرجوع إلى نقطة انطلاقه، والمقصود هنا انفصامات من التوازن غير قابلة للرجوع إلى الوراء. وهذا يوضح مدى مرونة الأشكال الاجتماعية وليونة التنظيمات في حدود قابليتها للتشكل والتنوع.

ويمكن القول بطريقة مبسطة إن عدم وجود توازن اجتماعي لا ينشأ أبدًا في كل مكان في وقت واحد، وهذه الطريقة المبسطة تبدأ بواقعة جديدة تستند على أحد مخططات الحقيقة الاجتماعية. وتبعًا للظروف التاريخية غير المرتقبة، فإن الاهتزازات الأولية تحدث في أحد الميادين التي

تتصل كل منها بما أسميناه بأطر العقلية. ومن مفاهيمنا العلمية، ومن أفكارنا الأخلاقية أو التشريعية أو من طرائقنا الفنية، فإن هذا الاهتزاز الأولى يلمس الهياكل الأخرى، فيحدث إعادة توازنات عامة. وعلى ذلك، فتقدم الطب، وبخاصة منذ اكتشاف المصل ضد الجدري أثار الثورة السكانية. أعني ازدياد معدل المواليد. وكذلك إطالة متوسط الحياة، وينتج عن ذلك بدون شك إعادة تنظيم للمجتمع. وعلى العكس فقد حدثت الثورة المسيحية دون أن يسبقها تغيرات في العلم، ولا في الطرائق الفنية، ولكن انتصارها فرض بعد ذلك تنظيمات اجتماعية جديدة، أثرت في معنى التطورات التالية للعلوم. وقد فرضت الثورة الصناعية من جانبها انقلابات سياسية وأخلاقية. فالتطور متشابه في كل الميادين، ونظام التعاقب في هذا التطور هو وحدة الذي يختلف.

وعلى ذلك فإن كل عقلية جديدة تحتاج إلى تنظيمات جديدة. ومن ذلك نفهم تقسيم سان سيمون المراحل العضوية والمراحل الحرجة. وتوصف هذه المراحل الأخيرة بعدم التوافق بين المنظمات والعقليات. ويتخلف عن ذلك انتشار عدم الرضا العام وروح الحرمان من أخذ الحقوق وبعث الاعتداءات والانقلابات العنيفة.

ولكن كل تغير اجتماعي مشروط بشرط حدوث اختراع أو عدة اختراعات، أعني إدخال تجديدات أو ابتكارات في المحيطات العقلية والمادية، فالاختراع هو الظاهرة الرئيسية للتاريخ، والمقصود بالاختراع هنا اختراع في القيم أو اختراع في الطريقة الفنية، أو اختراع علمي.

وقد اقترح تارد Tarde التفرقة بين الاختراعات العلمية التي يضاف بعضها إلى بعض والاختراعات الخاصة بآداب السلوك والسياسات التي تتناثر فيما بينها لأن الاختراع الأخلاقي يشمل عددًا محدودًا من المعايير. ويقوم التجديد في هذا الميدان على التدليل أكثر مما يقوم على الاستنتاجات.

وتبعًا للعامل التاريخي، فقد تحدث أحيانًا بعض الظروف التي يتنافس كثير من الدوافع خلالها على إثارة إعادة النظر للقيم وللصور الجديدة للتوازن بين المنظمات والطرائق الفنية والعقليات. وقد يحدث هذا التنافس عن طريق توافق الظواهر الدورية التي تضاف آثارها للأسباب الأخرى للاضطرابات. وعلى ذلك فالأزمة الاقتصادية التي سبقت عام ١٧٨٩ أو الانتكاسات التي تصاحب الاختراعات التكنيكية والاضطرابات الاجتماعية معًا تثار بوساطة الحروب وتوجد كذلك مراحل من التوازن العقلي غير الثابت التي تعتبر مهيأة للارتدادات الجماعية. وقد يستمر فقدان التوازن وقتًا طويلاً تحت صور غير واضحة وقد يظهر فقدان التوازن هذا إذا ما جدت اضطرابات فجائية. وسنتحدث فيما يلي عن الصور الهامة لتظاهرات الدوافع المتنافسة:

(١) **الثورات:** ونحن نعرف جميعًا الأهمية الضخمة لمفهوم الثورة وكثرة الأبحاث التي كرست لدراسة هذا المفهوم. ومع ذلك فنحن نرى أن للحرب معنى واضحًا، أما معنى الثورة فهو اصطلاح يستخدم في عدد كبير من المعاني يختلف الواحد عن الآخر تمام الاختلاف، فتشمل هذه المعاني انقلابًا في المبادئ وفي التغيير المفاجئ للطبقة الموجهة أو لطريقة التسلسل

الطبقي، وللتغييرات السريعة في القانون الخاص أو القانون السياسي في النقل الجماعي للملكيات والأموال وفي انقلابات البنيان السياسي وفي الطرائق الفنية، وفي الثورة الصناعية والإحصائية، وفي الأخلاق والعادات الخ.

(٢) علم الاجتماع الاستعماري: هو جزء متمم لعلم الاجتماع العام، ولكنه يأخذ صورة غير صورة الحرب، لأن العنف الأولي ذو أبعاد صغيرة جدًا بالنسبة للحرب. فالحملة الاستعمارية تأخذ في الأصل طابع عدم التناسب في الوسائل الفنية، لأننا لا يمكن أن نتحدث عن الظاهرة الاستعمارية إلا عندما نكون في مواجهة حضارات ذات مستوى فني وثقافي غير متساويين. ويسيطر دائمًا الأكثر تقدمًا على الأكثر تخلفًا. وتمثل الظاهرة الاستعمارية صورة سريعة لانتشار الطرائق الفنية وتغيير العقليات. ومن خصائص الأولى للظاهرة الاستعمارية التقليد أو المحاكاة، فيفرض على أي شعب المنظمات التي سبق لها وجود عند الشعب المستعمر. وهذا يعتبر محاكاة إجبارية مصحوبة بتغيير إلزامي. ولكن تلمس هنا تميزًا ملحوظًا: فالسلطة التي تفرض أحيانًا هذه المحاكاة سلطة خارجية، وهذا هو الاستعمار بعينه.

وأحيانًا أخرى ينبثق التغيير من السلطة الداخلية، وتوضح لنا الأمثلة التاريخية أن التغييرات الشاملة الجامعة التي من هذا النوع والتي كتب لها النجاح كانت نوعًا من "الاستعمار الذاتي" لذلك كان التغيير الذي أحدثه بطرس الأكبر في روسيا، وإمبراطور اليابان في عام ١٨٦٨ وكمال أتاتورك في تركيا. وفي هذه الحالات الثلاث انبثقت القوة الدافعة من التغيير الذي

أحدثه هؤلاء الرؤساء الموجهون، وفي حالات أخرى يستند التغيير المبدئي إلى جزء أكثر اتساعًا من الطبقة الحاكمة كما في الصين أو على العكس إلى الجزء الأكثر عددًا والأكثر تواضعًا بالنسبة لمجموع الشعب كما في حالة الثورة المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية. وعلى ذلك وتبع هذه الحالات فإن الطبقة الحاكمة إما أن تتبع أو تسبق الجماهير في طريق التجديد.

الحروب

وها نحن أولاء، قد وصلنا إلى ظاهرة من الظواهر التي لم تدرس دراسة كافية من جانب علم الاجتماع باستثناء سبنسر، برغم المكانة التي تشغلها هذه الظاهرة وفي حياة المجتمعات، ولا ننسى أن كثيرًا من المدنيات تلاشت واندثرت معالمها بسبب الحرب. وحتى هذا الوقت تعتبر الحرب ميدانًا لدراسة المؤرخين الذين يحددون ظواهرها العرضية، والتي تستحق كثيرًا من التأملات.

ومع ذلك فإن استمرار "ظاهرة الحرب" هذه الحقيقة التي نجدها في المجتمعات المختلفة، من المجتمعات التي هي أكثر بدائية حتى المجتمعات التي هي أكثر تمدينًا يضطرنا إلى أن نعتبرها، سواء أردنا أم لم نرد، وظيفة من بين الوظائف الاجتماعية التي هي أكثر دوامًا وثباتًا، وتبدو لنا دراستها من الأهمية بمكان. وينبغي أن تحتل جزءاً كبيرًا من أجزاء علم الاجتماع العام، لأن الحرب مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعدد كبير من الدوافع الاجتماعية المتداخلة، ومن المستحيل علينا أن نغفل أيًا من هذه العوامل.

وتقدم كل حرب حالية في حوادثها ونتائجها صورًا إحصائية وسياسية واقتصادية وفنية، حتى فلسفية ودينية. ولنلاحظ أن نتائج الحروب هي النتائج الوحيدة التي يمكن بها أن ندرسها بطريقة موضوعية، لأن الأسباب الحقيقية للحروب تكون لدينا غير واضحة وغير معروفة أو هي أسباب فرضية بحتة.

وإذن من الضروري جدًا أن ننشئ فرعًا لعلم الاجتماع العام يخصص لدراسة الحروب وأشكالها المختلفة ونتائجها بطريقة موضوعية كذلك دراسة القوى الدافعة للحروب الدورية. ولذلك اقترحنا أن نطلق على هذا الفرع من الدراسة اسم "علم الحرب" وليس هذا لمجرد المتعة التافهة في خلق كلمات جديدة في اللغة، ولكن لأن اسم "علوم الحرب" هو الاسم الذي أطلق تقليديًا على فن الحروب (إستراتيجية، تكتيك، تنظيم الجيوش الخ) الذي يدرس في الأكاديميات العسكرية وفي كليات أركان الحرب.

ونضيف إلى ذلك أنه من الفائدة بمكان أن نتذكر ضرورة الدقة إلى حد ما في تحديد أفكارنا في مواد هذه العلوم لأن الحروب التي لم تكن حتى وقتنا الحاضر إلا مصائب وأحيانًا كوارث، اتجهت الآن إلى أن تصبح كوارث وانقلابات مدمرة للجنس البشري. واليوم أضحت فنون التدمير أقوى بكثير من فنون الإنشاء والتعمير.

أهمية علم الاجتماع في الوقت الحاضر

وخلاصة القول، نرى أن تطور العلوم الاجتماعية الخاصة لم تقلل شيئًا من أهمية علم الاجتماع العام. ويتطلب تصنيف المجتمعات ومقارنة بعضها

للبعض الآخر إعداد "طبولوجيا" اجتماعية قائمة على معايير موضوعية لا على مفاضلات مذهبية ومن وجهة أخرى، فإن علم الاجتماع التطوري "الديناميكي" وبخاصة بعض الظواهر يشتمل على فصول منفصلة تمامًا عن علم الاجتماع العام.

وأخيرًا فهل نحت في حاجة إلى أن نردد الأهمية الكبرى والفوائد الجمة التي يقدمها علم الاجتماع للإنسان؟ وتنحصر مأساة العصر الذي نعيش فيه في التنقل التراجيدي بين حالة الطفولة للعلوم الاجتماعية، والتقدم المذهل لفنون الإنتاج. وهل وصلت الإنسانية اليوم إلى مستوى من الوحشية والعنف أكثر مما وصلت إليه في الأزمنة البدائية؟ وأفما زالت عقليتها عقلية طفل؟ واليوم يغامر الإنسان بأن يكون ضحية قوة دافعة غريزية تعمل على إثارة الاضطرابات والقلاقل الاجتماعية، لأنها تخلق له مصائب فوق ما تحتمله طاقته، وليس هناك غير التعمق والدقة في دراسة نتائج حقائق المعارف الاجتماعية التي قد تهيئ للإنسان البحث عن وسائل تحرره من القوى الاجتماعية الاستبدادية وإمكانية التغلب عليها، وبذلك نستطيع أن نخلق توازنًا جديدًا بين علوم الإنسان وعلوم المادة.

الفهرس